
كما تحلمين
رواية لـ سارة رجب

مقدمة

بحجم الأرض، بقوة النور، أحلامٌ متناثرة تحملها الريح، في ذاكرةِ كلٍ منا،

في قلبه، في عقله، وفي رئتيه يتنفسها كالهواء.

كالخيالات التي تكون ورديّة، أو هكذا يظنها أصحابها.

كالتأمل في ذلك الفاصل الغاية في الدقة الذي يفصل الأحلام عن الواقع.

كالخطوات التي ترفعنا إلى السماء بقدر أحلامنا حتى نتحسسها بأطراف أصابعنا.

"كما تحلمين" تتعرض لبعض هذه الأحلام، مُحاطة بتفاصيل الواقع،

بعراقيله وانحناءات طريقه، في لقطات سريعة جدًا كسرعة الحياة.

بعيدًا عن التفاصيل الكثيرة، الشاقة والمتعبة في معظم الأحيان، عن المثالية، عن الأحلام المعتادة، صفحات قصيرة من حلم في عالم قريب منّا بغض النظر –والفكر أيضًا– عن قيود الزمان والمكان.

ولكن المهم فيما سيُذكر في جنبات القصة أنه موجود، حدث أو سيحدث.

ليست تجربة أدبية أبدًا وإنما مجرد خاطرة وتخيل عن حلم صغير مختلف، وتصور لواقع حياة آخرى.

ليست كل أحلام الفتيات ورودًا ولا قلوبًا حمراء، ربما اللون الأحمر موجود لكنه يرمز إلى شيء آخر.

"كما تحلمين" ليست حكرًا على حلمٍ معين وإنما كُل الأحلام.. كلها، طالما تصب في جمال الحياة –والموت أيضًا–!

أليس من الحكمة أن نخطط لكلاهما؟

وأمّا عن جمال الحياة، فلا يكون إلا في جمال أرواحنا، في الأثر الذي نتركه، في مواجة الظلام بالنور، في نسج البسمة من بين الألم، في الصمود أمام الابتلاء، في البسمة المرسومة على شفاة وجه متعبٍ لحظة أن يحيط حلمه بيديه.

وكي تكون حياتكِ كما تحلمين أنتِ، وكما تحلم أنت، فلك مثل الكون أمل وصبر، ولك كلماتي هاهُنا، كما هي لأحدهم، قريب، بيعد، يعيش في حلمه، وربما تتلاقى الأحلام يومًا.

إهداء

إلى المعلّقَة قلوبهم بين السماء والأرض

إلى من يَسبحون في أرض الأحلام

إلى الخطوات المتعثرة في أروقةِ الحياة

إلى المستمسكين بأمالهم رُغم العثرات

إلى الأحلام المستكينة التي تنبتُ بدواخلنا

إلى خيوط النور بين الظلام

وإلى الأرواح التي تستنشق عبير الأُمنيات..

إلى الأرواح النقيّة..

وإلى النّهايات كما نحلم..

كما تحلمين

" رواية "

كعادته بعد الفجر يترقبُ موعد شروق الشمسِ، ينتظر أشعتها تنسدل على الكون..

مهيبٌ هذا المنظر له، محببٌ إلى قلبه، عشقٌ وأبعد بكثير..

رؤيته لهذا الظلام يتبدد، لانبثاق الضوء من بين الظلام، لخيوط النور تُغطي الأرض..

يتأملها... يطيل النظر إليها كأن عيناه تعانقها، يَخيّلُ إليك أنه يحادثها..

أنّ بينه وبينها أسرارًا وحكايا لا تنتهي.

وهكذا كل يوم.. مع كل شروق..

ينتظرها.. ينتظر أشعة الشمس، يحتضن النور المنساب إلى داخله، يتركه يأخذ من روحه ما يشاء. يختزل هذا المشهد تصورًا مثاليًا لما هي عليه حياته، ومع أن المشهد يتكرر يوميًا إلا أنه يتجدد في نفسه دائمًا، يتجدّد بأعداد أنفاسه، بألوان الأحلام التي يُحبّها والتي كانت تُحبّها هي أيضًا..

في ذلك الصباح كان يستمتع بمتابعة صغيرته وهي تلعب في حديقة منزله، طفلةٌ جميلة، وجهها مضيء، ملامحها صغيرة دقيقة، لم تتجاوز الثلاث سنوات بعد..

تشبه أمها كثيرًا، ليس في ملامح وجهها وإنّما في حركاتها، صمتها وسكونها.. جمال روحها، ونشاطها الدائب.

– نور.. نور اهدئي قليلًا.

تجري نحوه في خفة ونشاط، تقتربُ منه وتدور حوله، يحاول أن يمسكها فتتفلت من بين ذراعيه برقّة، تضحك بصوتٍ عالٍ يُسمع دويّهُ في قلب والدها.

وبينما هو منشغلٌ بها، كأن الدّنيا قد خلت إلا منها، يستأذن الخادم ويخبره أنّ هناك من تريد مقابلته بشكل عاجل، يأذن له بأن يسمح لها بالدخول.

تساءل في نفسه مَن تكون هذه؟! لم يُفكر طويلًا إذ وجدها أمامه بعد لحظات قصيرة.

لمحها من بعيد، لم يستطع أن يخفي صدمته، تغيّرت ملامحه وتبدلت، ومع كل هذا ظلّ صامتًا.. لم ينطق شيئًا رغم سيل الكلام الذي كان يجول في رأسه.

شاركته هي في صمته ولم تنطق، نظر إليها مرة أخرى ليتأكّد.. تبدو غريبة هذه المرة.. ليست كآخر مرة رآها منذ سنوات!

قالت بانكسار قاطعةً ما يدور برأسه..

– ستيفن! ألن تُرحب بي؟ لقد اشتقتُ إليك كثيرًا.. ألم تشتق لوالدتك؟

أنا آسفة.. آسفةٌ حقًا على كل ما جرى، كنت مخطئة ولم أدرك هذا إلا متأخرًا.. متأخرًا جداً!

ستيفن.. ألن تتكلم؟

تشتت حروفه وعصى عليه جمعها، لم يخطر بباله يومًا أن يلتقيها ثانيةً ولم يكن مستعدًا لنكْءِ جرح قديم في ذلك الوقت.

بعد ثوانٍ من الصمت قال: ماذا حدث؟ ما الذي تغير؟ لا أفهم!

قالت والدته وهي تمسح دمعة هربت من عينيها: لقد أتت إليّ، لم أكن أعرف أنّها..

قاطعها قائلًا: من؟

قالت بعد أن فشلت في نطق حروف اسمها: زوجتك.

سرتْ هزة عنيفة في جسده، دارت الدنيا به.. قال وعلامات الصدمة باديةٌ عليه: زوجتي؟!!

******

– شروق أنتِ هنا؟ كنت أبحث عنكِ

– أنا هنا يا ريم كيف كان الامتحان؟

– جيد، وأجمل شيء أنه كان الأخير.. أخيرًا سنأخذ العطلة!

أنا سعيدةٌ جدًا.

قالت شروق مبتسمةً:

– نعم الحمد لله، ما رأيك أن نسير إلى البيت معًا؟

– فكرة جيدة، الجوُّ رائعٌ، كما أنني أريد أن أطيل الوقت معكِ، ربّما لا نتقابل إلا بعد شهور.

قالت شروق وهي ترتب كتبها وتتأهب للنهوض من مكانها:

– هل ستسافرين إلى مصر يا ريم؟

– نعم إن شاء الله، اشتقتُ إليها كثيرًا، وأنتم ألن تقضوا العطلة في مصر؟

تنهدت شروق وقالت:

– لا أعتقد، لم نستعد ولم يخبرنا أبي بشيء، أظننا لن نسافر، سنقضيها هنا في إنجلترا.

لاحظت ريم تغير صوت شروق فحاولت التخفيف عنها:

– ولكنكِ بالتأكيد جهّزتي خطة ممتعة عبقرية مثلك لهذه العطلة.. كيف ستقضينها؟

– بين الكتب، اشتقتُ كثيرًا إلى كتبي.

نظرت إلى الكتب التي تحملها وقالت:

- لقد سئمتُ من كتب الدراسة حقًا!

ستكون فترة خاصة بالقراءة والتلخيص إن شاء الله، وبعض النشاطات إن وافق أهلي عليها، كم أتمنى أن تكون عطلة مميزة.

سألتها ريم:

- نشاطات مثل ماذا؟

قالت شروق وقد دبّ الحماس بصوتها مجددًا:

- أريد أن أبحث عن مركزٍ دعويٍّ هنا..

كما تعلمين هم في حاجة لمن يُعلّم المسلمين الجدد، ويكون جيدًا في التواصل معهم وهذا سهلٌ بالنسبة لي، ويقومون أيضًا بعمل دورات تدريبية وتأهيلية لمن أراد أن يعمل في هذا المجال.

- رائع يا شروق ولكن لماذا يرفض والداك؟

- يقولون: إن هذا ليس من شأننا وأننا لم نترك بلدنا ونأتي إلى هنا إلا للدراسة وفقط!

لكن لدي ثقة أن شيئًا سيحدث، أو أحاول أن أقنع نفسي بذلك، كيف؟ لا أدري!

المهم أن لدي شعور قوي أنّ الله سيهون هذه الغربة..

غربة الروحِ والعقل والوطن أيضًا! كثيرٌ على قلبي أن يتحمل هذا.

قالت ريم وهي تحاول التهوين عليها:

- لا تقلقي يا شروق، ربما يفاجئكِ والدك وتزورون مصر، أو تُيَسر الأمور وتفعلين ما تُريدين هنا، أنا واثقةٌ أنّ الأمر سُيحل.

رددت شروق:

– نعم، سيُحل إن شاء الله!

ودعت ريمٌ شروقَ وعانقتها عندما اقتربتا من منزلها، ثم أكملت شروق الطريق إلي بيتها الذي لا يبعد كثيرًا عن بيت ريم.

سارت شروق بخطوات هادئة، تتأمل الأشجار والأوراق المتناثرة منها على طول الطريق، تتطلع إلى السماء وتتابع الطيور التي تسبح في الفضاء..

على الرغم من كل الإمكانيات التي تحصل عليها هنا؛ إلا أنها لم تحب التواجد في إنجلترا يومًا، وتود لو تعود إلى مصرَ سريعًا حيث نشأت، المكان الذي احتوى ذكرياتها وأحلامها.

شاردةٌ بأفكارها المتزاحمة.. هذا هو ديدنها كلما خلت بنفسها يومًا، تخطّط وترتّب، وتعدّ حسابًا لكل خطوة في حياتها، تفكّر في مستقبلها، وأحلامها الكثيرة، رغم أن الكثير خذلهما

"هي وأحلامها" لم تجد روحًا تشُدّ من أزرها، وتمنح روحها أملًا وثقة، إلا أن ما يُدهشك أن جُلّ أحلامها موجهٌ إلى أولئك الذين خذلوها، تسعى لأن تشعل فيهم نورًا لا يخبو مع الأيام.

أخذت عهدًا مع خالقها أن لا تترك أحدًا إلا وأخذت بيديه، كما يَسَّرَ لها من يأخذ بيديها..

تشعر أحيانًا أن الواقع ينحرفُ عما تُريد الوصول إليه..

بدأ هذا الانحراف الذي أورث في نفسها قلقًا، عندما قرر والدها السفر إلى إنجلترا منذ عامين؛ لتدرس شروق في إحدى جامعاتها، وتعيش هي وأسرتها حياةً كريمةً هناك، غير الحياة التي كانت تعيشها في مصر من حيث التعليم المميز والمستوى الاجتماعي والمادي الرفيع..

لم تَعدّ لهذه الخطوة حسابًا، كانت أمام تحدٍ قويٍّ وهو أن تُحيل الظروف التي جَدّت إلى خدمةِ ما كانت تسعى إليه.

منذ أن سافرت وهي تحاول أن تتأقلم مع الحياة الجديدة، وتستفيد بأكبر قدر من الإمكانيّات المتاحة، تتشبّث بأحلامها كالغريق الذي يتمسك في أي شيء للنّجاة!

ما لبثت أن دخلت "شروق" إلى البيت حتى جرت إليها أختها الصغيرة "هند" تستقبلها بضحكتها الفاتنة التي تزيدها جمالًا فوق جمالها، حملتها شروق وقبّلتها في حنان وقالت:

– ها قد عدت وسنلعب كثيرًا من اليوم، فقد أنهيت امتحاناتي والأيام القادمة لكِ فيها الكثير من الوقت.

تفلّتت الصّغيرة من بين يديها وعادت إلى لعبها مرة آخرى.

لمحتها والدتها وقالت بابتسامة: بدلّي ملابسك يا شروق وهيّا لنأكل.

دخلت شروق غرفتها..

عالمها الصغير المبهج، مبهرةٌ تجذب نظر كل من يراها، دفعتها الوحشة التي وجدتها في أول أيامها في إنجلترا أن تُحيل غرفتها إلى موطن صغير تشعر فيه بالأمان، تُشبه غرفتها بمصر والتي كانت متعلقة بكل تفاصيلها.

تحتوي ذاتها، غذاء روحها، كتبها والكثير من التلخيصات الخاصة بما تقرأ وتُدوّن، أفكارها، خططها وأحلامها..

تشعر مع أول خطوة فيها أنّها جزءٌ من عالم آخر، لم يأتِ أو ربما سيأتي قريبًا، تشعر أن لها رائحة تشبه رائحة الأحلام..

شيءٌ جميلٌ مميز هاهنا.. لا تعرف تحديدًا من أين يأتي!

ربما من ذلك الأمل الذي يغشاك حين تقعُ عيناك على إحدي أوراقها الملونة المعلقة في أنحاء الغرفة، والتي تنثرُ فيها عبارات التفاؤل.

هناك ورقة صفراء كُتب عليها "ثمة أمل" و ثانية بيضاء كُتب عليها "استعن بالله ولا تعجز" وأخرى وردية كتب عليها "كن حُلمًا وكن على قدره".

رمقت شروق مكتبتها وأوراقها بنظرة اشتياق وتمتمت:

"أخيرًا جاءت العطلة، لدينا الكثير من الوقت لنستمتع"

تخيّلت لو أنها لم تفلح في إقناع والديها بإحضار الكتب معها! لقد عانت في ذلك فهي في نظرهم بغير فائدة، كانت تردد:

" بغير فائدة؟! كيف يكون الهواء بغير فائدة؟".

لمحت من بعيد ذلك الكتاب الذي كانت تنتظر الفرصة حتى تبدأ في قراءته، يحكي عن أبطال أثروا في تاريخ الأمّة، نظرت إليه وقالت في داخلها:

"هذا هو الكتاب القادم، شَحنةٌ من الأمل، بعد الأثر الذي يتركه كل كتاب يتحدث عن المجد الضائع والهوان الذي تعيشه الأمة اليوم!"

يقطع تفكيرها صوت أمها:

– هل انتهيت يا شروق؟

– أجل، قادمةٌ يا أمي.

*****

عاد مالك ويحيى إلى البيت في العاشرة مساءً بعد أن قضيا قليلًا من الوقت معًا، كان الجو هادئًا ومناسبًا لنزهة تخفف عنهم عناء العمل طوال الأسبوع.

كان المهندس عبدالله والد يحيى جالسًا يحتسي كوبًا من القهوة عندما دخلا عليه.

قال يمازحمها:

- لماذا أنهيتما سهرتكما مبكرًا هكذا؟

قال يحيى:

- حقًا! جِئنا مبكرًا؟

ثم نظر إلى مالك وقال بأُسلوبه المرح:

لماذا يا مالك قطعت سهرتنا، وأخبرتني أن والدي سيغضب إن تأخرنا؟!

كما تراه أمامك هو سعيدٌ ويود لو أننا لم نأت مبكرًا.

قال والده:

- إذًا كنت ستتأخر أكثر لولا مالك؟ أين كنتما؟

رد يحيى:

- تجوّلنا قليلًا مع بعض رفاقنا، واشترينا بعض الأشياء، ثم صلينا العشاء في المسجد..

- وما هذه الكتب التي تحملها يا مالك؟

- إنها هدية من أحد أصدقائنا.

أخذها عبدالله من يده وبدأ يقرأ أسمائها، ثم جلس يحيى ومالك يتناقشان فيما دار في حديثهم اليوم مع رفاقهم.

****

جلست شروق ومن حولها الكتب التي تتصفّحها، تُنظّمهم في هالة تُحيطها، وتتنقل بينهم كفراشة تطير بين الزهور.

استأذن محمد أخوها حتى يدخل إلى غرفتها، فتحت له الباب وقالت تمازحه:

– محمد!.. أخيرًا أعطيتنا جزءًا من وقتك!

– من يتكلم؟ الغائبة عنا دومًا! نحن نشكر العطلة بصدق أن أعطتنا الفرصة للقائك شخصيًّا.. لديّ مفاجأة لكِ!

قالت وهي تضحك:

– مفاجأة!

تُرهبني مفاجأتك هذه، مفاجأة سعيدة أم غير ذلك؟

– المشكلة فعلًا أنني لا أدري هل هي سعيدة بالنسبة لك أم لا، عن نفسي أنا في غاية الفرح.

قاطعه صوت أمه عندما دخلت عليهما:

– سنحتفل بمناسبة انتهاء الامتحانات وسنقضي وقتًا ممتعًا.

قال محمد:

– نعم، سنسافر في رحلة لمدة أسبوعين. خمني أين ستكون؟

نظرت شروق إلى والدتها وهي تكاد تطير من الفرح:

– سنسافر إلى مصر؟

قال محمد:

- أقول لك مفاجأة وسنقضي وقتًا ممتعًا وتقولين نسافر إلى مصر! لا خمّني مرة أخرى.

أصابها كلامه بخيبة أمل لكن سرعان ما خطر ببالها شيئًا وقالت بحماس شديد:

- قولي لي يا أمي أنكم قررتم أخيرًا زيارة أهل أبي في فلسطين.

ضحك محمد بصوتٍ عالٍ وقال بسخرية:

- ابنتك مجنونة يا أمي.

ثم خرج من غرفتها مقهقهًا.

قالت والدتها:

- سنقضي أسبوعين في أمريكا ياشروق، سنذهب يوم السبت المقبل إلى نيويورك إن شاء الله.

قالت بنبرة يعلوها الاعتراض:

-نيويورك يا أمي؟ لماذا؟

وما الفرق بين هنا ونيويورك؟ الحياة نفسها، الناس أنفسهم، كل شيء متشابهٌ أين التجديد والتغير إذًا؟

فلنذهب إلى مصر.. إلى أهلك يا أمي، لم تريهم منذ أكثر من سنتين. أم سننساهم كما نسي أبي أهله في فلسطين؟

- يا شروق قلت لك أننا لم ننسَهم، بإمكاننا أن نهاتفهم وقتما نشاء.

ثم هدأت من نبرة صوتها، وقالت وهي تنظر إلى عينيها:

طبيعة الحياة يا حبيبتي تفرض علينا هذه الظروف، ووالدك بذل كل ما لديه ليجعلنا نعيش هذه الحياة، كما نحن الآن وبهذا المستوى، ولكن يجب أن تفهمي! لابدّ من وجود تضحيات، تضحيات بسيطة.

–تضحياتٌ بسيطة يا أمي؟ أن نترك حياتنا، أهلنا ووطننا؟!

أن تتحكم بنا الحياة وتأخذنا حيث تريد، أن نمشي مع التيار أيًّا كانت وجهته؟ أن نفرط في ديننا ونعيش في بلد غريب! من أجل ماذا؟

مستوىً اجتماعي، عمل، مال، دراسة؟!

الحياةُ مليئة بأكثر من هذا لنستمتع به، كنا نستطيع أن نفعل هذا وأكثر ولا نحتاج لهذه الغربة.

نظرت إليها والدتها للحظاتٍ تَعْقل ما تقوله، كلامها موجعٌ بالنسبة لها لكنّه صحيح في نهاية الأمر، ثم قالت بهدوء كأنها تحاول أن تستعطفها:

–غربةٌ هنا وغربة هناك أيضًا!

ألا تذكرين كم كنت تشتكين من صديقاتك اللاتي بلا أهداف وبلا أحلام ويضيعن أوقاتهن ويعيشن حياة تافهة لا إنجاز فيها ولا تقدم؟

يا حبيبتي أنتِ مميزة ولا أحد يشبهك هنا أو هناك.

ردت شروق بنبرة خافتة:

– لا يا أمي إن كنتُ مميزة كما تقولين فهم سبب تميزي ولا شيء آخر!

مجرد تواجد الإنسان مع من يشفق عليهم من أنفسهم ومن تصرفاتهم الخاطئة تدفعه لأن يبحث جاهدًا ليخرجهم ممّا هم عليه وعندئذ وفقط يصبح مميزًا.

أي أن البطل لا يكون بطلًا إلّا إذا وجد من ينقذه، وإلا فما الفائدة من وجوده بين أبطال مثله؟

لهذا المتميز ليس مكانه بين من يُشبهه بل بين من يحتاجه.

كنت مخطئة بشكايتي هذه ولم أدرك أن وجودي بينهم هو واجبي الأسمى وودت لو أعود لأقوم بمهمتي.

ردت والدتها مبتسمة:

– تبهريني بتفكيرك دائمًا يا شروق. هوني على نفسك ولعلي أحاول إقناع والدك بأن نقوم بزيارة إلى مصر.

– ليتك تقنعيه بزيارة إلى فلسطين كذلك، وذكريه أيضًا أن لديه واجبًا تجاه وطنه، ذكريه بأهله الذي لم يرهم منذ عشرين سنة، صلة الرحم حتى يا أمي!

لا أحب أن تأخذنا الحياة هكذا وتتشعب بنا بعيدًا عن أصولنا، عمّا يجب أن تكون عليه حياتنا، ليس من هذا الطريق!

قاطعتها أمها:

– أفهم هذا جيدًا يا حبيبتي، لكن رفقًا بنفسك وبنا.

أريدك أن تفهمي أن هناك الكثير من الفتيات ممن هنّ في مثل عمرك تود الواحدة أن تحظى بربع ما يوفره لكِ والدك.

نعيش هنا بأمان ربما لو كنا هناك لتفرقنا أو قُتل أحدنا.

قاطعتها شروق وهي تنظر إليها بنظرة عتاب:

- لا يا أمي لا تقولي هذا الكلام، لا يُعقل أن تعتقدي أن وجودنا هنا يحمينا من الموت أو أي شيء آخر!

- لا أقصد هذا ياشروق، اهدئي سيمر الأمر إن شاء الله، هما أسبوعان فقط، وكما قلتِ لن يفرق هنا من نيويورك بالنسبة لكِ، لكن أخوك وأختك الصغيرة في غاية الفرح فلا تفسدي عليهما بهجتهما، لن تفعلي ياحبيبتي أليس كذلك؟

تنهدت شروق ونظرت إلى الأرض في صمت وقالت:

-بلى.

قبلتها أمها وخرجت.

*****

وقف يحيى ومالك أمام أحد المباني في مدينة نيويورك، مبنى لا يبعد كثيرًا عن بيتهما، كانا يتأملانه في سعادة بالغة.

نظر يحيى إلى مالك وهو يبتسم:

– أخيرًا يا مالك انتهينا من تجهيزه وإعداده. لا أصدق أنه تم في هذ الوقت القصير.

– نعم رائع، أتوقع أن يكون هذا المركز إضافة مميزة للمسلمين هنا وأن يساعد في التعريف بالإسلام ونشر صورة صحيحة عنه.

– أتعلم يا مالك منذ أسلمنا وأنا أفكر.. كيف وصلنا إلى هذا الطريق؟! كأن الكون كله سُخِّر لنا، دائمًا أشعر أنه كما أختارنا الله من بين كل هؤلاء حتى نكون على ما نحن عليه الآن، يجب علينا أن نبذل كل ما بوسعنا لنساعد غيرنا.

– وأنا مثلك تمامًا أشعر أن لديّ رسالة أقوم بها، ويزداد إحساسك بالمسئولية أنك كنت مثلهم يومًا ما، في أمس الحاجة لمن يأخذ بيدك،

ثم كم هو رائع أن يستعملك الله في "إنقاذ روح"

قال يحيى بتأثر:

– نعم "إنقاذ روح" هذا هو التعبير الأمثل!

ثم نظر إلى مالك واقترب منه وقبل رأسه بهدوء، حاول مالك أن يبتعد، فقال له يحيى مبتسمًا:

– أشكرك يا مالك لأنك كنت سببًا في إنقاذ روحي.

قال مالك وهو يخفي تأثره:

– لقد أنقذنا الله معًا يا يحيى، أنا لم أفعل أيّ شيء.

– لم تفعل شيئًا! كيف؟

لو لم تكن موجودًا معي في محنتي لما صرت إلى ما أنا عليه الآن..

– ولولاك ووالدك بعد فضل الله ما وجدت مكانًا يأويني بعد أن طردني أهلي منذ أعلنت إسلامي.

قاطعهما صوت والد يحيى الذي كان يتابعهما من بعيد في صمت:

– هل جئت في موعد غير مناسب؟

ضحك كلاهما، وقال مالك مازحًا:

لا شيء كنا نحاول أن نقلد مشهدًا في رواية وابنك لا يجيد التمثيل كعادته في أي شيء.

قال عبدالله:

– علمه يا مالك علّنا نستفيد منه..

رد يحيى:

– أفضالك علينا كثيرة يا مالك ولا أدري حقيقةً كيف أردها.

لم يستطع مالك أن يكتم ضحكه، ثم قال متصنعًا صوتًا مستكينًا وهو يربت على كتف يحيى:

– لا تقلق يا صديقي أنا هنا لأجلك.

قال المهندس عبدالله:

– كأنّي أربي أطفالًا في العاشرة من عمرهم. لن تكبروا أبدًا!

قال يحيى:

- الحياة مسلية هكذا.. لماذا نكبر؟

رد والده وهو يشير للمبنى:

- تكبرا كي تديرا هذا المكان أيها المشاكس.

هيّا إلى الداخل لنرى آخر التجديدات.

***

قضت شروق تلك الليلة في غرفتها لم تخرج منذ حديثها مع والدتها،

تشعر بضيق يكاد يخنق أنفاسها، كانت تُحدث نفسها:

"هل تُراني أخطأت بحديثي مع أمي؟ هل استرسلت معها بما لا ينبغي أن يُقال؟

إنهم لا يبالون بشيء مما أقول، ألا يكفي أنني تركت أصدقائي منذ أن غادرنا مصر؟

ألا يستطيعون أن يحتووا أحلامي؟ بعض البدائل المتاحة هنا لم توفر لي الانسجام التام،

كأن أحلامي كلها قُطفت ووضعت في تربة آخرى غير مناسبة لنموها!

أخاف أن تذبل أوراقها وأن يضيع كل شيء أعددت له، يا ليت ظني يخيب.

حقًا.. ما أشقى الأحلام التي تنبت في الكهوف!"

تحاملت على نفسها، توضأت وقضت الليل تصلي وتدعي، تركت الدموع تسيل من عينيها لعلها تخفف من حرارة أنفاسها.

هدأت بعد فترة وأحضرت ورقةً وقلمًا وبدأت كعادتها في نسج بعض الكلمات التي تخرج كأبهى ما تكون وقتما يلامس قلبها شيء من الحزن فتحيله إلى شحنات من الأمل تستنشقها في أوقاتها الأخرى، كتبت..

"هكذا الحياة لن تكون على مرادنا في كثير من الأوقات، كل شخص في هذا الكون لديه ما يقلقه ويعاني من أجله، حتمًا ستُصابُ بما يؤلمك، لكن ما أجمل الألم في سبيل تحقيق الحلم،

بعض العثرات التي نظنها في حين حدوثها كالجبال، سندرك بعدها أنها مجرد أحجار صغيرة.. ربما نحتاجها فيما بعد لنضعها في حفرة عميقة ستفاجئنا في وسط الطريق لنستطيع العبور. أو ربما نصنع بها سُلمًا يرفعنا درجاتٍ لنصل إلى ما نُريد..

لابد من عثرات في الطريق، ويوم لا تجدها فأنت حتمًا ضللت.

هكذا عهد الأبطال دائمًا، يجب أن يكونوا أبطال حياتهم أولًا،

كن بطل حياتك في البداية.. حطم اليأس في داخلك.. تخطّ الحواجز والعقبات.

اشرق من داخلك حتى تُخرج النور لمن حولك، فالله أمرك بأن تنقذ نفسك أولًا ومن ثم أن تمضي في حلمك لإنقاذ من حولك".

تنهدت شروق بعدما انتهت من الكتابة، أحسّت أن طاقةً كانت لابد وأن تخرج، وإن كانت تحتاج بشدة لمن تحكي معه وتشاركه ما يدور في نفسها. لكن لا بأس، حتى وإن فقدت هذا الشخص فهناك السجدات التي تبوح فيها بالكثير.

في صباح يوم السبت استعدت عائلة شروق للسفر

وضعت شروق بعض الكتب الصغيرة والأوراق التي ستقضي معها هذه المدة، ثم أسرعت لتلحق بهم.

****

من بعد المغرب إلى العشاء وقتٌ خاص بتدارس القرآن وتعلم اللغة العربية، يتجمعون في حلقات كهالات النور التى تنبثق من وجوههم، يغشاهم الهدوء والطمأنينة..

يشاركهم يحيى ومالك دائمًا منذ أن أسلما، يجتمعون كي يستمدوا من بعضهم البعض أمنًا وزادًا وثباتًا، ويُرّوحون عن أنفسهم عناء العمل، وجفوة الحياة.

في هذه الليلة كان يحيى بمفرده، فمالك قد تخلّف بسبب مهمة عاجلة في العمل، حيث يعمل كلاهما في إدارة شركات والد يحيي.

بعد انتهاء الحلقة جلس يحيى في ركنٍ من المسجد ينتظر أذان العشاء، تدور عينيه في أنحاء المسجد، يرمق المتواجدين بنظرة حبٍّ.

يُحبّ أن يصافح وجهه وجوههم النقيّة، وأقصى ما يرنو إليه هو أن تتلاقى عيناه مع عيني أحدهم فيبتسم له ابتسامة حانية ويبادله هو الآخر.

ربما لدى أغلبهم قصصًا يرقُّ لها عن كيفية دخولهم الإسلام، ويود لو أنه سألهم واحدًا واحدًا.

هذه القصص المختلفة يشعر أن في ثناياها ما يُشبهه.

أخذه الخيال بعيدًا وجعل يفكر

تُرى كيف ستكون حالتي الآن إن لم أكن أسلمت؟ ربما سكيرًا شريدًا، أو تائهًا مشتتًا تتقاذفه أمواج الحياة! أو ربما أكملت حياتي كما كنت أريد.. تزوجت من الفتاة التي كنت أحبها وزدت في الغرق حتى وصلت إلى القاع!

الحمد لله أن شيئًا ممّا كنت أتمنى لم يحدث. يا الله! هذه الفتاة التي كنت أظنُّ أن برحيلها رحلت روحي وانتهت حياتي! بل رحلت هي وبدأت حياتي.

فجأة أظلم كل شيء ليُضئ..

انتبه يحيى إلى صوت الأذان، فقام إلى الصلاة..

وبعد أن انتهت لمح مالك يدخل إلى المسجد.. لم يكن قادمًا وحده بل كان برفقة شابين، أحدهما يعرفه يحيى جيدًا فهو "أحمد" صديق مالك من دولة المغرب والذي كان له الفضل بعد الله في إسلام مالك، ومن بعده إسلام يحيى، وأما الآخر فهو غريب لا يعرفه.

اقترب ثلاثتهم منه، قال مالك مبتسمًا:

– ما رأيك بهذه المفاجأة يا يحيى؟

احتضن يحيى أحمد قائلًا:

– اشتقتُ إليك كثيرًا يا أحمد، كيف حالك؟

– بخير حالٍ، وأنا كذلك اشتقتُ إليك كثيرًا.

أشار إلى الشاب الغريب الذي لا يعرفه يحيى قائلًا:

– أعرفك بصديقي "علي" من فلسطين الحبيبة.

قال يحيى وهو يمد يديه إلى "علي" ليصافحه:

– أهلًا بك يا "علي" سعيدٌ أنا بلقائك.

علق مالك:

– طلب "علي" أن يعمل معنا يا يحيى، أريدك أن تجد له عملًا جيدًا

قال يحيى:

– نشرفُ بوجودك معنا يا علي، فلتأت إلى الشركة غدًا إن شاء الله.

قال أحمد:

– وأنا متأكد أن "علي" سيجد بينكما الراحة ويجد فيكما عوضًا عن أخويه، استُشهد أخواه في غارة شنها الإحتلال على منطقتهم ونجا هو وأخته ووالديه.

بدت على وجه يحيى ومالك الصدمة، قال يحيى بتأثر:

– حقًا! إنا لله وإنا إليه راجعون، عظّم الله أجركم وصبركم.

عقب مالك:

– تقبلهم الله في الشهداء، كان الله في عونكم تعيشون حياة صعبة!

إبتسم "علي" في هدوء:

–إعتدنا على ذلك، في فلسطين لا يوجد بيت تقريبًا إلا وفيه فقيد! هذه حياتنا ولا مفر والحمد لله على كل حال.

قال أحمد:

– الله قادرٌ على أن ينصركم.

رق يحيى ومالك كثيرًا لما سمعاه، ربما هذه المرة الأولى التي يلتقيان فيها بأحد الضحايا وجهًا لوجه فلم تمتد معرفتهم لأكثر من مجرد قراءة في الكتب أو من الأخبار المسموعة والمرئية.

عرض يحيى عليهم الذهاب ليقضوا الليلة في البيت يتناولون العشاء معًا.وافقوا وانطلق الأربعة يتبادلون الحديث فيما بينهم

****

– هيا يا شروق تعالي معنا لم تخرجي منذ مجئينا!

قالت "هند" وهي تتوسل إلى شروق.

ردت شروق بلطفٍ:

– اذهبوا أنتم يا هند لا أريد أن أخرج.

– قالت أمي أنها لن تخرج بدونك.

إلتفت شروق إلى والدتها التي كانت منهمكة في ترتيب بعض الأشياء وسألتها متعجبة:

– لماذا يا أمي؟

– لأنهم سيتأخرون ولن أترككِ وحدك هنا.

قالت هند وقد قاربت البكاء:

– أيُعجبك يا شروق؟ لن تخرج طالما لن تخرجي! تعال معنا أرجوك!

قالت والداتها:

– تعالِ معنا هذه المرة يا شروق حتى لا أكون قلقة إن تأخرنا وانتظري في السيارة في الأماكن التي لا تُعجبك.

نظرت إليها هند كأنما تستعطفها، ترددت شروق ولم تُحب أن تضايقهم ثم قالت بعد دقيقة من التفكير:

– حسنًا سأجلسُ في السيارة، لكن هذه المرة فقط، من أجل عيونك الجميلة فقط يا هند.

قفزت هند وأطلقت صيحة من فرحتها واحتضنت شروق وهي تقول:

- شكرًا يا شروق.. أنا أحبكِ كثيرًا.

*****

جمعت الشمس أشعتها استعدادًا للغروب، كأن صفحةً لابد أن تُطوى في كتابٍ ما، كما هو الحال في ذاكرة يحيى!

غارقًا في شروده ينظر إلى السماء، تظهر على شفتيه بسمة خفيفة، يبتسم مالك هو الآخر من بعيد وينظر إليه خلسةً متابعًا بريق عيني يحيى ويتعجب لصمته الذي استمر قرابة النصف ساعة بعدما اقترح يحيى أن تكون جلسة التأمل هذه نهاية النزهة المفاجئة إلى ذلك المكان الغريب الذي اختاره يحيى ليذهبا إليه.

اقترب مالك من يحيى وهو يحدق بعينيه ممّا جعل يحيى ينظر إليه في ترقب منتظرًا مزحته التي سيقولها ليفسد عليه لحظته كما يفعل دائمًا.

– هل اكتفيت من النظر إلى السماء؟ ربما اكتفت هي!

هل بإمكاننا أن نذهب وتنظر إلى السماء من بيتنا؟ هناك أيضًا سماء لا تختلف عن هذه كثيرًا.

– السماء هي السماء ولكن الاختلاف في عيني من يراها!

إنه وقتٌ قصيرٌ نسرقه من الحياة السريعة نخلوا بأنفسنا، أتستهين بهذا الوقت؟

– اشركني فيما يجول بخاطرك أيها المفكر.

ابتسم يحيى وقال:

– تأمل الشمس! تأملها وهي على وشك الغروب كأنك تودع شيئًا مُحببًا إلى قلبك، لكنها ما تلبث أن تعود من جديد بعد فاصل من الظلام الدامس!

هذا هو ما كنت أحتاج أن أصل إليه.

أن حياتنا تمشي على ذلك النهج، يظهر الكون بلون الشفق ثم ما تلبس أن تختفي الشمس رويدًا رويدًا كأنها تأخذ معها –من قلبك– ما مرت عليه أشعتها في ذلك اليوم من أشياء جميلة أو غير ذلك، لكن لا يجب أن تقلق إن غابت الشمس وحل الظلام فهي ستعود. ستعود بعد الفجر القريب.

– حياتنا بين فقد شيء والحصول على أفضل منه.

يخفت النور ثم يعم الظلام ثم يأتي النور من جديد.

هذا ما ترمي إليه يا يحيى؟

– نعم. شيٌ قريب.

ما رأيك أن نُثّبت وقتًا خاصًا لجلسةٍ تأمل أسبوعيًا يا مالك؟

وقت شروق الشمس مرة وغروبها مرةً آخرى، وقت نقتطعه نفكر بهدوء ونعيد حسابتنا وننظم أفكارنا.

– جيد، كنت أفكر في شيء مثل ذلك منذ فترة.. أتعلم يجذبني لها؟

فكرة أن تقضي وقتًا بعيدًا عن الحسابات المادية، أن تُنمي مفاهيم الجمال في داخلك، أن تتذوقه وتشعر به، أن تقتطع جزءًا لنفسك.. بعيدًا بعيدًا عن صخب الحياة.

توقف مالك عن الكلام عندما لاحظ أن يحيى ينظر إلى شيء ما، كان على إمتداد بصرهما رجل ضخم يشير بيديه ويصيح أمام بيت قديم مهجور يتكون من طابقٍ واحد كأنما يتشاجر مع أحدٍ ولكن لا يظهر غيره.

أمسك مالك بيد يحيى وهو يقوم من مكانه قائلًا:

– لنذهب من هنا يا يحيى أعتقد أن المكان غير آمن.

وقف يحيى بحرص وظل صامتًا مترقبًا كأنما ينصت إلى شيء ما ثم قال هامسًا:

– مالك! هل تسمع ما أسمع؟

– لا، لم أسمع ولا أريد أن أسمع.. نظرتك هذه تُرعبني!

هيا لنترك المكان بدأت أقلق.

تحرك يحيى ببطيء كأنه لم يسمع رد مالك، لمح مالك الرجل من بعيد وجده يتخبط كأنه في غير وعيه ثم فزع عندما رأه يُخرج سلاحًا!

أمسك مالك بيد يحيى من جديد وجذبه بشدة

– يحيى! هذا الرجل يحمل سلاحًا وهيئته مخفية وربما لو رآنا لقتلنا في الحال! إلى أين أنت ذاهب؟ هيا نعود وكفاك جنونًا.

– الصوت من جديد يا مالك! أسمع صوت أحدهم يصرخ.. لابد أن نقترب من البيت لنعلم ماذا يجري. أشعر أن أحدهم يحتاج إلى مساعدة.

– نقترب؟ ربما لن يجد من يساعدنا نحن!

– سنتسلل من الخلف ولن يرانا.

خطى يحيى خطوات مرتبكة بإتجاه البيت الذي يصدر منه صوت الأنّات والصراخ الهزيل ومن ورائه مالك يتملكه القلق والخوف، تُسمع بجوار دقات قلبهما إصطدام أحذيتهما بالأعشاب الجافة التي تملئ المكان من حولهما.

*****

في هذه الليلة دخل مالك البيت متأخرًا، فزغ والد يحيى من هيئته.. يبدو في حالة غير طبيعية، كان مضطربًا، وجهه شاحب أصفر.

صاح به قائلًا:

– من خمس ساعات وأنا أحاول أن أتصل بأحدكما ولا تجيبان!

أين كنت وأين يحيى؟!

وقف مالك صامتًا لا ينطق بشيء.

استشاط والد يحيى غضبًا وصاح من جديد:

–لماذا أنت صامتٌ هكذا؟ تكلم!

قال مالك بارتباك:

– آسف، آسف حقًا.. كنا في أمرٍ طارئ ولم ننتبه لأي إتصال.

– أي أمرٍ طارئ؟ وأين يحيى لم تُجب!

– يحيى في المستشفى!

تراجع والد يحيى خطوتين وكاد أن يسقط أرضًا بعدما تمثلت له بعض الخيالات المخيفة التي كانت تراوده طوال ساعات انتظارهما ثم نطق بصعوبة:

– المستشفى! ماذا حدث له؟

– لا تقلق.. هو بخير.

تنفس عبدالله الصعداء وقال وهو يمسح وجهه بيديه المرتعشتين:

– الحمد لله!وماذا يفعل في المستشفى إذًا؟

– يحيى برفقة فتاة تعرضت لعملية خطفٍ وجدناها وهي غائبة عن الوعي الآن وتحتاجُ إلى رعاية طبية.

حاول أن يستوعب ما يقوله، نظر إليه في دهشة ثم قال:

– حقيقيٌ هذا أم أنك تمزح أنت ويحيى كعادتكما! أنا لا أصدق.

– صحيحٌ والله، الأمر في غاية الجدية وسأحكي لك التفاصيل فيما بعد.

– وهل سيبيت يحيى في المستشفى الليلة؟

– نعم.. وهو من أرسلني لأطمئنك وسنذهب إليه غدًا إن شاء الله.

دخل مالك غرفته وبدل ملابسه ثم عاد وجلس مع والد يحيى ليحكي له.

قال عبد الله بنبرةٍ يعلوها السخرية بعد أن استمع لتفاصيل ما يروي مالك دون مقاطعته:

– إذًا الفتاة خُطفت وقادها الخاطفون إلى مكانٍ مهجور وقدرًا كنتما على مقربة من المكان، وقدرًا سمعتما صوتها وقدرًا لم تجدا من الخاطفين إلا واحدًا وذهب الباقون في مهمة آخرى، وقدرًا كان سكيرًا وأنقذتما الفتاة منه، وقدرًا تكون الفتاة مسلمة!

ثم رفع عينه إلى مالك وقال:

– تظنني أبلهًا كي أصدق كل هذا؟ يبدو أن جنونكما جعلكما تختلقان رواية جديدة! ولكن الأمر زاد عن حده.

تنهد مالك ووضع رأسه بين يديه ثم نظر إلى الأعلى..

– يا ليتها كانت رواية! يا ليتها! أنا مثلك لا أصدق ما جرى ولكنه حدث! حدث أمامي كل شيء، وهناك فتاة في المستشفى الآن ولا ندري ماذا أصابها.

أحس عبدالله بجدية الأمر صمت لدقيقة يحاول أن يدير الأمر في رأسه ثم قال:

– ومن أين عرفتما أنها مسلمة؟

– من ملابسها، وكانت تتمتم ببعض الأيات وهي غائبة عن الوعي!

****

ساندًا رأسه إلى ظهر المقعد الذي ما لبث أن رمى عليه جسده المنُهك، بعد أن مضى وقت طويل واقفًا أمام الغرفة مقلبًا بصره في نواحي المكان ويتابع خروج ودخول الأطباء من حوله.

قضى يحيى الليلة في المستشفى يفكر ويسترجع في ذاكرته ما حدث..

الآن فهم سبب الرغبة الملحة لأن يذهب إلى هناك!

لماذا قادته قدماه إلى ذلك المكان الذي لم يذهب إليه منذ سنوات!

في هذا الوقت تحديدًا ليجد هذه الفتاة ! تُرى من تكون وما قصتها؟!

يتردد في أذنه صدى صوتها وهي غائبة عن الوعي، كانت تردد كلمة "يارب"..

نعم كانت واضحة جدًا، متأكد أنه سمعها، إنها مسلمة!

لا يمكن أن تكون في نيويورك بمفردها، أين أهلها وماذا أصابهم!

أفاق يحيى من شروده على صوت الطبيبة التي خرجت من غرفة الفتاة للتو

قام إليها مسرعًا وسألها:

- كيف حالها الآن؟

- ستكون بخير لا تقلق، لكن الأمر سيأخذ وقتًا.. يبدو أنها تعرضت لصدمةٍ عصبية حادة ستترك لديها أثرًا ولكن الجيد في الأمر أنها حركت رأسها ببطء، حركة بسيطة لكنها مؤشرًا جيدًا أن غيابها عن الوعي لن يطول، بإمكانك أن تنل قسطًا من الراحة وتأت غدًا في الصباح إن أردت.

- حسنًا شكرًا لكِ.

نظر يحيى إلى ساعته وجدها الثالثة والنصف، دقائق ويؤذن الفجر.

قرر يحيى أن يذهب للصلاة ثم يعود مرة آخرى إلى المستشفى.

***

كان الجو غائمًا في ذلك الصباح، كأنّ الشمس على وشك الغروب على الرغم من أنها ما لبثت أن أشرقت منذ سويعات قليلة، أشرقت لكن ضوئها خافت.

تمامًا كلون "شروق" الذي يميل إلى الأصفر الشاحب وهي ترقد غائبة عن الوعي في المستشفى.

وصل مالك ومعه عبدالله إلى المستشفى، كان يحيى جالسًا أمام غرفة الفتاة.

قال والده:

– يحيى.. ماذا جرى؟ وكيف حال الفتاة التي حكى عنها مالك؟

قال يحيي بصوت خافت يبدو عليه التعب:

– لا أعلم، لم تستفق إلى هذه اللحظة.

– سيكون كل شيء بخير لا تقلق عُد إلى البيت لتنم قليلًا يبدو عليك الإرهاق وأنا ومالك سنهتم بالأمر.

–أنا بخير لا تقلق.

قاطعهم صوت الطبيبة التي جاءت لتطلعهم على آخر أخبار الفتاة:

– إنها تتمتم ببعض الكلمات وتحرك رأسها ببطء، لم أستطع أن أفهمها يبدو أنها لا تتكلم الإنجليزية ولا الفرنسية أيضًا.

قال عبدالله:

– هل يمكننا أن نراها؟

– واحد منكم فقط.

سارع يحيى قائلًا:

- سأدخل أنا..

دخلت الطبيبة ومن ورائها يحيى يشعر بالخوف والارتباك..

كانت ترقد الفتاة في إعياء شديد تحرك رأسها ويديها ببطء وكأنها تدفع شيئًا ما.

ظل يحيى منتبهًا لهمساتها، إستطاع أخيرًا أن يفهم شيئًا، كلمات متفرقة

" أمي .. أمي .. محمد .. أين أنتم؟"

ثم يتلاشى صوتها تدريجيًا

همس يحيى:

- إنها تتكلم العربية ..

" قُتلوا! قتلوهم.. يا أمي أريدك.. لا تتركوني.. "

إستطاع يحيى أن يميز ما تقول..

بدت عليه الحيرة المطلقة سألته الطبيبة إن كان قد فهم شيئًا صمت للحظات ثم قال:

- يبدو أنها تنادي على أسماءٍ معينة.

طلبت منه الطبيبة الخروج كي تستكمل بعض الفحوصات وأخبرته أنها في تحسن.

خرج يحيى، وجد والده ومالك في انتظاره. كان يحيى مشوشًا لا يدري ماذا يحدث، سأله والده:

- ماذا هناك يا يحيى؟

– لا أدري حقًا، سمعت منها بعض الكلمات ولست متأكدًا هل ما فهمته صحيح أم لا!

قال مالك:

– ماذا سمعت؟

– إنها تتكلم العربية، نطقت بعض الأسماء.. سمعت منها "محمد" والباقي لم أفهمه، وأيضًا كأنها كانت تنادي على أمها..

قال والده:

– هكذا فقط؟

– لا.. يبدو أن الأمر خطير ومريب لو كان ما فهمته صحيحًا.

سمعتها تقول بعض الكلمات مفادها أن أحدًا من أهلها قُتل أو على الأحرى كلهم! كل من كان معها!

بدت عليهم الدهشة ونظر بعضهم إلى بعضٍ في ريبة.

قال والده:

– هل أنت متأكد يا يحيى؟

هز يحيى رأسه وقال في تردد:

– لا أدري، لا أدري حقًا..

***

عاد يحيى إلى البيت بعد أن أقنعه والده أن يستريح قليلًا..

وعلى الرغم من أنه لم ينم منذ يومين إلا أنه ظل مستيقظًا يتقلب على فراشه يمينًا ويسارًا، لا يغيب ما حدث عن باله وتدور الأفكار برأسه.

تعود به ذاكرته قبل ثلاث سنوات من الآن، في المستشفى ذاتها التي ترقد فيها هذه الفتاة عندما وجده مالك في حالة سيئة وهو يحاول الانتحار.

تلك الأيام التي يعتبرها أنها أسوأ ما عاش في حياته، كانت لا تمر عليه الليالي، النهار مظلم كالليل، وحشة لا تفارق صدره كأنّما يصعد في السماء!

فقد رغبته في الحياة وأصبح جسده هزيلًا ضعيفًا كأنما أصابته الشيخوخة على الرغم أنه لم يتجاوز السنة الثانية بعد العشرين!

وكل هذا لأن الفتاة التي كان على علاقة بها تركته وسافرت مع أهلها.

كان يُحدث نفسه: يا رباه.. أمرٌ لا يُحتمل! ماذا لو كان الأمر صحيحًا؟ لو كان أهلها قُتلوا فعلًا! كيف لها أن تستوعب الأمر؟

كنت أظن أنني مررت بفترة عصيبة، وكان التداوي منها صعبًا أخذ أسابيع وإمتد لشهور حتى أخرجني الله مما كنت فيه.

وأمّا هي فتاة في موطن غير موطنها، فقدت أهلها جمعيًا ربما يكونوا قُتلوا أمام عينيها! كيف لها أن تتخطى هذه المحنة؟

وكأن الله يُريني أن الحياة لا تترك أحدًا إلا وأصابته من الابتلاء،

وربُ محنة ظننا أنها بحجم الكون.. وهي مقارنة بغيرها صغيرة ضئيلة،

لا ندرك هذا إلا عندما نقع في ابتلاء أكبر أو نرى مصاب غيرنا..

*****

استطاعت أخيرًا أن تفتح عينيها، لم ترَ شيئًا أمامها من قوة الضوء الذي دخل إلى عينيها فجأة، أغمضتها ثم فتحتها من جديد، لا تدري كم من الوقت غابت كأنها كانت فاقدة للزمان والمكان، شبه فاقدة للذاكرة، ثم بهدوء بدأت تحرك عينيها في الغرفة تتفحصها.

للوهلة الأولى ظنت أنها في حُلم.. تُحاول إدارك التفاصيل التي غابت عنها أو تمسك بالخيط من أوله علّها تنظم الأحداث المتنافرة في رأسها وتعيد ترتيبها كي تفهم ماحدث.

مرت بعض اللقطات سريعًا، لم يكن حلمًا بل كابوسًا مخيفًا.

كان الأمر مشوشًا جدًا، غيومٌ وضباب كثيف حال بينها وبين رؤية ما يجري، تشعر بوهن في قلبها قبل أن يكون في جسدها.

" أين أنا؟"

قالتها شروق بصوت يشبه الأنين وهي تحاول أن تتحرك.

منعتها الطبيبة بلطفٍ وقالت:

– تتكلمين الأنجليزية إذًا.. أخيرًا فهمنا كلامك.. لا تقلقي أنتِ بخير.

بدأت شروق تُحس بالحياة من حولها، مضت دقائق وهي تنظر بريبة لمن في الغرفة.

ثم قالت من جديد وهي ترتعد:

– ماذا حدث؟ أنا أين؟

قالت الطبيبة:

– اهدأي كل شيء على ما يرام، أنتِ في المستشفى في نيويورك.

سمعت شروق كلمة نيويورك، مر شريط الأحداث في رأسها كأنه صواعق تصبُ في رأسها

صورة أختها وهي تطلب منها الخروج معهم، نزولها على رغبتهم وخروجها، ذلك المكان البائس المليء بالصخب الذي رفضت أن تدخله وإنتظرت في السيارة خارجًا، صورة المجرمين الذين استدرجوهم وخطفوها أولًا ثم أهلها إلى مكان مجهول، صراخ أختها وأمها، طلقات الرصاص المدوية ..

بدأت شروق في البكاء، حاولت الطبيبة والممرضات تهدأتها ولا جدوى، أعطتها الطبيبة مهدءًا ثم غابت في النوم.

***

أنصت "علي" باهتمام لما يرويه يحيى ومالك عمّا جرى معهما في اليومين الماضيين حين تجمعوا في فترة الراحة في مكتب يحيى.

سأل يحيى:

- تُرى ما هي الرواية الحقيقة لما حدث لها؟

رد مالك:

- عندي رواية ربما تقرب لنا الواقع وتوضحه قليلاً..

سمعت أن هناك بعض العصابات تقوم بخطف فتياتٍ وتجندهم للعمل معهم في تهريب المخدرات وغيرها من تلك الأعمال، لكن الفتيات يُخترن بعناية شديدة..

كأن تكون بمفردها تعيش وحيدة ولا يوجد من سيسأل عنها بعد غيابها، أو قادمة في زيارة إلى نيويورك ولو كان معها أحد يتخلصون منهم بسهولة ثم تبقى هي وحيدة لا تعرف كيف تتفلت منهم أو تعود إلى موطنها، وهذا يضمن لهم عدم تفكيرها في الهرب ولا يكون لديها خيارًا إلا أن تعمل معهم!

قال يحيى:

- شيء بشع! ما يشغلني الآن هو عندما تفيق هذه الفتاة كيف سيكون حالها!!

علق علي:

- فتاة مسلمة قُتل أهلها وبقيت وحيدة!

تكررت هذه القصة كثيرًا بأبطال مختلفة، لا تقلق ستتخطى الأمر، ليست هي أول من تصيبها محنة كهذه.

رمقه يحيى بنظرة تعجب:

– هكذا بهذه البساطة؟

– ما أقصده أنك متعجب لأنك أول مرة ترى ضحية مثلها، أما أنا فرأيت مثلها كثيرًا.. هناك عشرات الفتيات عندنا في فلسطين وأماكن كثيرة في كل بلدٍ منكوبة من بلاد المسلمين مرت بما هو أبشع..

هناك الكثير من القصص البائسة وعادةً لا يجدون من ينقذهم أو يشفق عليهم، أتعلم ما يجعل صدري يغلي الآن؟

أن المأساة تتكرر حتى في غير بلادنا، ومن بين كل الفتيات تكون ضحيتهم مسلمة عربية وكأن الشقاء يدور معنا حيث ندور!

تصادمت بعض الأفكار في رأس يحيى ولم يعلم ما يقول ففضل الصمت..

رن هاتف يحيى فإذا به يجد رقم الطبيبة المسؤلة عن حالة الفتاة، رد على الفور.

أخبرته أن الفتاة قد عادت إلى وعيها وتحتاج إلى من يكون برفقتها ليُشعرها بالأمان وتطمئن بوجوده.

ذهب يحيى إلى مكتب والده يخبره بما قالت الطبيبة، إقترح والده أن يتواصل مع " فاطمة" وهي سيدة في الثلاثين من عمرها أسلمت منذ فترة يقوم هو برعايتها وطفليها بعد أن توفى زوجها في حادث، حكى لها قصة الفتاة وطلب منها أن تزورها وتظل معها، وتحاول أن تهون عليها ما هي فيه، ربما تستطع أن تقترب منها وتحتويها وتفهم منها ماذا حدث معها.

****

استيقظت شروق بعد ساعات من النوم، كانت تحاول أن تُقنع نفسها بأنها كانت تحلم. حاولت الهروب لكنها عادت إلى الواقع فوجدت نفسها كما كانت في المستشفى لم يتغير شيء.

تملكها الخوف وتسرب إلى كل ذرة فيها وتمتمت ببعض الأذكار حتى يعود إلى قلبها الآمان..

قلبها منفطرٌ مفتت لا تدري كيف تجمع شتاته، تشعر بوخز في جسدها، كأن فوق صدرها حملًا ثقيلًا يمنعها من التنفس..

تجول في رأسها الصور التي ترفض تصديقها ولا تكف البكاء وتكرر في صوت مختنق

" إنا لله وإنا إليه راجعون"..

تحاول أن تُثبت نفسها، وتدعو الله أن يخفف عنها ويمنحها القوة والصبر ويذهب عن قلبها الروع.

***

وقف يحيى أمام الغرفة يقدم قدمًا ويؤخر آخرى.

أخبرته الطبيبة منذ قليل أنها كلما دخلت عليها وجدتها تبكي وترفض الحديث إلا بكلماتٍ قليلة، يبدو أنها لا تثق في أحد.

أخيراً استطاع أن يدق الباب ويطلب الإذن كي يدخل..

للحظاتٍ لم يأته رد وهمّ أن يتراجع وينصرف، ثم ما لبث أن وصل إلى أذنيه صوتٌ ضعيفٌ هزيل يأذن له بالدخول..

فتح يحيى الباب ببطء ، سار إلى الداخل وعيناه إلى الأرض لم ترتفع عنها مطلقًا..

وقف مرتبكًا لم تسعفه الكلمات كأنما هربت وولت من على لسانه كلما هم أن ينطق بها، ثم قال في تردد:

- أعتذرُ إن كنت أزعجتك.. أردت أن أطمئن عليكِ..

انتظر أن يأتيه رد.. لكن لا شيء، صمتٌ وفقط!

تابع بعد لحظات..

- سنساعدك ونوصلك إلى أي مكانٍ، اخبرينا فقط بأي شيء تحتاجينه ..

أدركت شروق أن الذي يقف أمامها هو من أنقذها وجاء بها إلى المستشفى، كانت أول مرة تره فيها.. هي في الحقيقة لم تره، فهي لم ترفع عينيها هي الآخرى، كانت تشعر بانكسار شديد!

لم ترفع عينيها في وجه أي أحد حتى الطبيبة!

خائفة أن تتلاقى عيناها المُثقلة بالدموعِ في وجه أي أحد!

لا تدري هل تخشى مواجهة أي شخص في هذا العالم الموحش الخالي من أي مصدر للأمان، عالم بائس لا يحتوى على حضن أمها!

تمنى يحيى أن تتكلم.. أن تنطق بأي شيء..

ليعرف ما حدث معها حتى يتمكن من مساعدتها، أراد أن يسألها عن مقتل أهلها ولكنه تراجع، خاف أن يسبب لها ألمًا فوق ألمها.

– شكرًا.. أشكركم على كل شيء.

قالت شروق بصوت يخالطه البكاء الذي حاولت جاهدةً في إخفائه وفشلت..

لم يصدق يحيى أنها نطقت أخيرًا، عقُب قائلًا:

– لا داعي للشكر.. لم نفعل شيئًا.

أين أهلك؟ أقصد أين وجهتك بعد أن تتعافي؟

لست من هنا أليس كذلك؟

عادت للصمت من جديد.. ندم يحيى على سؤاله وود لو صمت ولم يتكلم.

قال بعدما فقد الأمل في أن تجيبه:

– اعتذر إن كنت ضايقتك.. أريد فقط أن أخبرك أننا رهن إشارتك، أخبرينا فقط بأي شيء تريدين.

همّ يحيى بالانصراف، تعقبت شروق وقع قدميه على الأرض إلى أن إختفت..

ثم انهارت هي في البكاء بعد خروجه، كانت كل خلية في جسدها تنتفض..

تشعر بغصةٍ.. بمرارة في الحلق، بانكسار شديد كأنها وقعت من فوق جبلٍ عالٍ وهوت إلى الأسفل..

كانت تردد "يارب.. يارب أنت ملاذي، هون عليّ.. لم يبقَ لي أي شيء أستمد منه زادًا في حياتي.. أعلم أنك لن تتركني..

وحيدة غريبة أنا.. هنا في هذا العالم الواسع! كلهم ذهبوا وبقيت بمفردي.."

كانت تائهة.. تتوجع بصمتٍ ولا تجد من تنقل له شكايتها علّه يساعدها.

حين تجتمع كل المصائب.. كلها في وقتٍ واحد!

حاولت شروق أن تُضمد جراحها وتهون على نفسها بنفسها وتتذكر فضل الصبر وتسأل الله أن يربط على قلبها، يجول في قلبها

"إن الله إذا أحب عبداً إبتلاه.." ، " فمن رضي فله الرضى.."

كانت تكرر ولا تكف عنها أبداً "رضيتُ يارب.. رضيتُ يارب"

كأنّ نفسها تنازِع الموت، صراع رهيب بداخلها..

"ضعفها البشري" ويزيده كونها فتاة صغيرة من ناحية، ومن ناحية آخرى محاولة الرضا والتسليم لقضاء الله.. تجاهد في إقناع نفسها أن كل البشر مبتلين وعلى قدر الإيمان يكون الإبتلاء! ولكن أي إبتلاء هذا الذي تمر به!

ربما وهي التي تقرأ كثيرًا عن قصص المبتلين وكيف ألمها ما وجدت فيها، وأندمجت بمشاعرها مع ضحاياها.. لم تتخيل أن تصبح هي بطلة إحدى هذه القصص يومًا.. وأغلبنا كذلك !

سارعت شروق بمسح دموعها عندما سمعت أحدهم يطرق الباب

أطلت عليها سيدة تبدو في الثلاثين من عمرها ومعها طفلة صغيرة لكنها مختلفة عن كل من دخل عليها قبلًا، كانت ترتدي الحجاب.. إنها مسلمة.

عندما لمحتها شروق أحست بحنين، بانتعاش كأنه نسيمٌ خفيف مر على قلبها المنهك.

إشتاقت هي أن ترى هذه الهيئة، كانت في حاجة لأن ترى أي أحدٍ تعرفه أو على الأقل يُشبهها، حتى لا تشعر أن العالم قد خلا فجأة من كل شيء مُحبب إليها.

ابتسمت السيدة وهي تقدم لها باقة من الورود قائلة:

– السلام عليكم.. هل يمكنني أن أقضي معكِ بعض الوقت؟

قالت شروق وهي تنسج ابتسامة من بين الألم المرسوم على وجهها:

– وعليكم السلام.. تفضلي.

–كيف حالك حبيبتي؟

– الحمد لله

– أنا "فاطمة" وهذه ابنتي الصغيرة "عائشة".. جئنا لنطمئن عليكِ

– شكرًا.. ممتنةٌ لكِ كثيرًا.. أنا شروق.

قالت فاطمة وهي تحاول أن تنطق الاسم بطريقة صحيحة بدت كطفلٍ في بدايات نطقه:

– شروق.. اسم جميل، يبدو أنك لست أمريكية؟

– نعم.. أنا مصرية ولكني أدرس في إنجلترا منذ عامين..

كانت شروق تحاول أن تظهر أنها ثابتة، هادئة لا يوجد بها أي خطب..

كعادتها لا تحب أن يراها أحد منكسرة أو ضعيفة..

وجدت شروق نفسها تتجاوب معها بعد أن كانت لا تستجيب لأحد، وأحست أن شيئًا في نفسها يدفعها للحديث، ربما تهون عليها هذه الغربة الحادة التي تملكت منها، علّها تجد أنسًا تفتده..

أكملت فاطمة:

- لو تعرفين كم أوصاني "يحيى" ووالده عليكِ.. كم أحببتك وأنا لم أعرفك بعد.

قالت شروق متعجبة:

- يحيى؟ من يحيى؟!

- يحيى الذي أحضركِ إلى المستشفى..

أخبرني أنك لا تتكلمين مع أحد وربما تجدي راحة معي بدلًا منهم لأنهم رجال..

- اسمه يحيى! هو مسلم؟!

- نعم بالطبع.. ألم تكوني على دراية بالأمر؟

يحيى ووالده المهندس عبدالله وصديقه مالك مسلمون جدد.

أسلموا منذ عدة سنوات، وأنا كذلك مسلمة جديدة وكم كنت أتمنى أن ألتقي بفتاة عربية مسلمة منذ أن وعَت على الدنيا وها أنتِ ذا أمامي.. سعيدةٌ أنا برؤيتك.

تنهدت شروق وقالت:

– مسلمون جدد! هونت عليّ الأمر كثيرًا.. لا تعرفين كمَ الوحشة التي كنت أعانيها.. هم رجالٌ أجانب، لكن هناك فرق أن يكونوا مسلمين أو غير ذلك! كنت خائفة.. خائفة كأبلغ ما يكون الخوف ولا أدري ماذا أفعل!

ضحكت فاطمة وقالت:

– كنتِ خائفة منهم! لا تعلمين كم يهتمون لأمرك.. لم أقابل أحدًا مثلهم ..

– كنت خائفة لأنهم رجال ولأنهم غير مسلمين لا يعرفون حدودًا ولأنني وحيدة ضعيفة.. تفهمين ما أعني؟

– نعم أفهم.. اطمئني حبيبتي أنتِ بأمان.

قالت فاطمة بنبرة حانية:

أخبرني يحيى أن هناك شيئًا ما أصابكِ وترفضين الكلام مع أي أحد.. وجهك شاحبٌ أصفر، وعيناكِ متورمتان من كثرة البكاء..

أعلم أنك تتكلمين معي وهناك الكثير في قلبكِ تُخفينه،

لن أطلب منكِ أن تتحدثي ولكني أريد أن أهون عليك، أريدك أن تكوني قوية.. تماسكي..

أنتِ أقوى من أن يهزمكِ حزن أو إبتلاء!

لقد مررت بتجربة قاسية مثلكِ.. بعد أن مات زوجي وأصبحت وحيدة لا أجد من يهتم بي وبطفليّ، لكن دائمًا وراء كل ابتلاء منحة.. فانتظري الفرج بعد كل ألم..

أسلمت في هذه الفترة وكان أفضل شيء حدث في حياتي، أنتِ مسلمة مؤمنة بالله وتعلمين أن قدر الله كله خير..

لا أدري ماذا حدث معكِ لكن سيدبر الله أمرك وسيُضَمد جراحك..

توقفت فاطمة عن الكلام عندما رأت دموع شروق تسيل بغزارة، مسحت دموعها وقبلت رأسها.. ضمتها إليها وشروق مستكينة مستسلمة.

قالت وهي تمسح على رأسها:

– ستكونين بخير.. ثقي أن الله لن يتركك أبدًا.

إشتد بكاؤها، ذكرها احتضان فاطمة بحضن أمها كأنها وجدت رائحتها بين ذراعيها.

قالت شروق بصوت تنتزعه من بين البكاء:

– إشتقت إلى أمي كثيرًا.. لو كانت هنا لهان كل شيء.

– حبيبتي.. نحن معك، هل ماتت أمك؟

– نعم، رحلت وتركتني..

– لكن الله لم يتركِ!

لم ترد فاطمة أن تسألها عن أي تفاصيل آخرى، فقط أبقتها في حضنها تمسح على رأسها إلى أن هدأت شروق.

نظرت إليها فاطمة وقالت:

– سأتركِ الآن وسآتي غدًا إن شاء الله لأخذك معي إلى البيت.. فقد أذنت الطبيبة بخروجك، ولا يوجد إلا أنا وأولادي الصغار في البيت، هل تريدين شيئًا الآن؟

قالت شروق بلهفة:

– مصحفًا.. أريد مصحفًا.

إبتسمت فاطمة وأخرجت مصحفًا صغيرًا من حقيبتها

– تفضلي.. هذا مصحفي، ابقيه معكِ.

وأريد أن أطلب منكِ طلبًا هلا نفذتيه؟

– نعم

– عديني ألا تبكي..

قالت شروق بانكسار:

– ادع لي..

****

نفسٌ عميق.. مسحت شروق وجهها من أثر البكاء، تركت العنان لفكرها..

لا مفر.. لا مفر من المواجهة، ما حدث حقيقيٌ فعلًا ليس حلمًا كما كنت أتمنى وانتظر لحظة أن استيقظ.. لن تأت، لن تأت أبدًا.. لن استيقظ وأجد أهلي قد عادوا.

أنا في المستشفى وسأخرج منها غدًا، سأذهب معها وأنا لا أعرفها؟ ثم ماذا؟

كل النوافذ مغلقة ولا شيء سوى هذا الضوء الخافت الذي ينبعث من هؤلاء الذين لا أعرفهم، لا أملك إلا أن أثق بهم،

أقصد.. أنا أثق بالله.. وعهدته لا يُضيعني، وكفى!

من جديد.. عند مفترق طريق آخر، رحلة لم أعد لها خططًا لكن هذه المرة أنا فيها وحيدة، ولا أدري معالمها. شطر مجهول من حياتي، لم أكن مستعدة له.

لم أكن أتخيل أنه من عقبات الطريق أن "أفقد الطريق نفسه"!

لابد من حسابات جديدة.. لنحسم الأمر الآن. أستسلم وأقع؟

سهلٌ جدًا، سهلٌ أن أعيش ضحية، سأجد ألف سبب وألف مبرر.

هناك الكثير من الأعذرا التي سأجدها عندما أواجه نفسي بعد ذلك، فقدت أهلي، في بلد غريب، فتاة في العشرين من عمرها لا تجد من يرعاها!

كل أسباب الانهيار متوفرة.. لكن ما بال النهاية! كيف ستكون؟

أغمضت شروق عينيها ثم تنهدت.. زفير خرج معه الهواء من أعماقها ملتهبًا من حرارة الألم في صدرها.

ثم حدثت نفسها وهي تحرك رأسها:

لا.. لن أرضى بها.. لن أرضى بهذه النهاية، لن أترك كل شيء يضيع..

لن أهدم المتبقي، لن أترك هذا البناء الذي تعبت في بنائه ينهار أمامي.

رغم كل ما حدث.. لن أترك التيار يأخذني حيث لا أريد،

الحياة البائسة لن تليق بي.. لن تليق بأحلامي.

لو كان أهلي هنا لن يرضوا لي حياةً ضائعة ومستقبلًا مجهولًا ..

إما أن أنتشل نفسي سريعًا.. وإما أن يُغرقني الشيطان ولا أخرج من دائرة الظلام أبدًا.

الابتلاء صادم، أعلم أنها ستكون رحلة طويلة مع نفسي، لن أشق عليها، لن أبخسها حقها في الحزن.. لكن لا خيار سوى التماسك، سيصغر الحزن تدريجيًا وستهدأ الروح..

تحسست شروق المصحف الذي كانت تمسكه، أحست بشوق شديد إليه، فتحته ثم خرج النور من بين صفحاته، غمرها وأحست بالحياة تدب في روحها من جديد..

****

- "شروق" اسمها شروق يا يحيى..

أخبرتني فاطمة أنها ستذهب معها غدًا إلى البيت، هل أنت مطمئن الآن؟

-سنطمئن عندما تذهب إلى البيت وتقتنع أن تعيش مع فاطمة إذا لم يكن هناك مكانًا تذهب إليه، وهذا دورك يا أبي.

- ماذا أفعل تحديدًا؟

- تُقنعها أن تعيش مع فاطمة وتتولى رعايتها هى الآخرى.

- لا مانع.. ولماذا ترفض إن كانت لا تجد من يتولى أمرها، أعتقد أنها ستتمنى ذلك.

- لا أظن أن الأمر سيكون هينًا عليها، لا تدري كيف كانت تتكلم معي بحرص عندما ذهبت إليها. هي فتاة عربية لها طبيعة مختلفة، ليس سهلًا عليها أن تنغمس بسهولة مع مجتمع جديد، وأن توافق على أن نتولى أمرها وهي لا تعرفنا.

- صعبٌ على أي أحدٍ أن يتعايش بسهولة مع ما مرت به، لكنه ابتلاء..

- نعم، هوّن الله عليها..

لاحظ يحيى ابتسامة مالك الذي كان يتابع الحديث بينهما دون تدخل، أحس أن ورائها شيء فسأله:

- لماذا تضحك يا مالك؟

قال مالك والابتسامة تزداد على وجهه:

- أنا؟ أنا لا أضحك.

–وما هذه الابتسامة إذًا ؟

– أنا مبتسم.. لكن لم أضحك، هناك فارق.

– حقًا! لماذا تبتسم يا عبقري؟

– لا شيء.. فقط ألاحظ أنك مهتم كثيرًا لأمر هذه الفتاة، لا تتكلم عن شيء تقريبًا منذ قابلناها إلا عنها.

قال يحيي وهو يكتم غيظه:

–كنت متأكدًا أنك ستقول مثل ذلك! ليس اهتمامًا زائدًا وإنما هو واجب الوقت، أمانة ومسؤلة منّا وتحتاج من يساعدها ولا أحد غيرنا يقوم بهذا.

– أفهم، كنت أمزح فقط.

– إذًا ليس اهتمامًا زائدًا؟ أنت متراجع عن كلامك؟

– لا.. هو اهتمام زائد بالفعل، أصارحك بالحقيقة.. هل تريديني أن أكذب؟

قال يحيي بضجر:

– حقيقة ؟!

صاح فيهم والد يحيى:

–كفوا عن التعامل كالأطفال هكذا، ولا تنسوا أن لدينا أمور عاجلة في العمل وغدًا افتتاح المركز الدعوي ولدينا يوم شاق ينتظرنا في الصباح..

****

سابحةٌ مع خيالاتها، تنظر شروق من النافذة المجاورة لها في السيارة وهي في طريقها إلى بيت فاطمة، لم يكن ذلك التأمل من باب الإعجاب ولا الاستمتاع، وإنما محاولة لإدراك أنها نيويورك حقًا، تتذكر أول ردة فعلٍ عندما علمت بأمر السفر..

"نيويورك يا أمي؟"

كانت تحدث نفسها..

أحضرتموني إليها وتركتموني وحيدة، ذهبتم وبقيت أنا فيها، ليتكِ هنا يا أمي لتدركي حقيقة الأمر! أن ما كنت تخافينه حدث! كنت تخافين أن نفترق، أن نُشرد أو يُقتل أحدنا؟

لهذا بعدنا وسافرنا نطلب الأمان خارج بلدنا!

كنتِ تظنين أننا نبتعد عن مواطن الخوف ومصادر القلق ونقترب من حياة الأمان والاستقرار؟

في الحقيقة كنا نقترب من قدرنا..

كأن أحدهم كان يفر بكل قوته من الموت ولا يدري أنه ينتظره عند الناحية التي يجري إليها!

قاطع شرودها صوت عمر وعائشة أبناء فاطمة عندما وصلوا.

دخلت شروق البيت مع فاطمة التي أظهرت لها ترحيبًا واستقبالًا كريمًا، كانت تحاول بشتى الطريق أن تزيل الريبة الواضحة في عيني شروق وأن تخفف من حدة الارتباك الذي يسيطر على حركاتها بابتسامة لطيفة وكلام عذب.

وشروق هي الآخرى متفهمة ما تحاول أن تفعله فاطمة من أجلها وتبذل جهدًا في أن تظهر لها أنها مطمئنة بصحبتها.

****

قضى يحيى مع والده وصديقه مالك اليوم في المركز الدعوي في أول أيام افتتاحه.

كان الاحتفال تجمعًا ثريًا.. حضره الكثير من المسلمين الجدد بالإضافة إلى الجاليات المسلمة التي تعيش في نيويورك. تبادلوا الأفكار والأطروحات المقدمة لتعمير هذا المركز، وتصورًا للخطط التي ستُنفذ على المدى القريب والبعيد حتى يكون أرضًا خصبة تُنبت بها بذور النور فتنمو وتشرق.

مضى قرابة الأسبوعين على وجود شروق في بيت فاطمة، طوال هذه الأيام وهي تجاهد مع نفسها جهادًا شديدًا كأنما تخمد صراعات تدور في داخلها، تحاول أن تألف الوضع الجديد.

هونت عليها فاطمة كثيرًا ، حكت لها شروق عن حياتها السابقة في مصر وعن سفرها إلى إنجلترا وكيف أتى بها القدر إلى نيويورك وعن واقعة خطفها وقتل أهلها.

حكت عن طموحاتها وأحلامها وكيف تناثرت في الهواء في يوم اشتدت به الريح!
ولكنها تحاول أن تجمع شتاتها.

تعاطفت معها فاطمة كثيرًا وشاركتها هي الآخرى عن حياتها وموت زوجها ثم قصة إسلامها..
وجدت كل منهما في الآخرى ما كانت تحتاجه وتفتقده.

بغض النظر عن كل التفاصيل المرهقة التي مرت كلاهما بها خلال حياتها لكنه يظل أمراً عجيبًا أن تجتمع كلاهما! أن تجمع الحياة بين فتاة عربية وفتاة أمريكية وتكونا أكثر من أختين شقيقتين.

جلست شروق وفاطمة بعد العشاء يتحدثن كعادتهن مع تناول بعض الحلوى التي أعدتها فاطمة، قالت شروق وهي تلاعب عائشة التي منذ أن أتت إلى البيت وهي لا تفارقها كأنها ظلها:

– أشكركِ على كل شيء يا فاطمة، لا أعلم كيف كانت ستمر هذه الأيام لو أنني لم أكن بينكم.

قالت فاطمة:

– يعلم الله يا حبيبتي كم أضفتي إلى حياتي، ولا أتخيل أنك ستغيبين عني يومًا.. كأننا كنا معًا منذ أول يوم في الحياة وليست مجرد معرفة أيام قلائل.

ابتسمت لها شروق ابتسامة إختزلت فيها كل معاني الحب ثم قالت:

– يتولى المهندس عبدالله الإنفاق على البيت صحيح؟

– نعم.. هو كريم وطيب الأخلاق، عهدته محبًا للخير دائمًا ويتواصل مع أغلب المسلمين الجدد هنا ليرى إن كان أحدهم في حاجة ما، ولا يدخر جهدًا ولا وقتًا من أجل مساعدة أي أحد هنا، على الرغم من انشغاله الشديد فهو رجل أعمال وله شركات كثيرة .

– أعانه الله.. كنت أود أن أسأل هل يمكنه أن يساعدني في إيجاد عمل مناسب؟

قالت فاطمة متعجبة:

– لمن؟

– لي بالطبع.. لا يمكن أن أعيش هنا هكذا دون عمل،

سأعمل حتى أقرر ما أفعل هل أسافر إلى مصر أم ماذا.

– لماذا يا شروق؟ أنتِ صغيرة ولن تتحملي مشقة العمل وستجدين ما يضايقك من الخروج والاختلاط بالإضافة إلى أن المهندس عبدالله أو يحيى لن يسمحا بأن تكوني تحت رعايتهما وتخرجين إلى العمل أبدًا، ستكون إهانة لهم.

– لا.. أنا لا أقصد الإهانة.. فقط لن أتحمل أن يكون هو المتولي رعاية البيت وأزيد أنا عليكم، سأبقى معكم بشرط أن أعمل..

– لا أدري ماذا أقول يا شروق لكن سأعرض عليه الأمر مع أني أعلم رده مسبقًا.

***

دخل يحيى مكتب والده، وجد مالك قد سبقه إلى هناك، أما والده فكان منشغلًا بمكالمة هاتفيه..

سارع مالك يمازح يحيى:

– دائمًا متأخر هكذا؟

قال يحيى بهدوء:

– أتعمد أن أترك لك السبق دائمًا، تواضع منّي ليس إلا..

– أخجلتنا أيها المتواضع! ليتك تتنازل عن تواضعك قليلًا وتأت في الموعد المحدد.

إنتهى عبدالله من مكالمته ووجه كلامه إلى يحيى:

– هل إنتهيت يا يحيى من إعداد التقرير الأخير الذي طلبته منك؟

– نعم، تفضل.

أخذه من يديه وبدأ يتصفحه، ويحيى ينتظر أن يتكلم والده عن الأمر الذي دعاهما له. بالطبع لن يكون هذا التقرير هو الموضوع المهم، إنه ينتظر أن يسمع أي شيء عن شروق وهمّ أن يبدأ بالسؤال هو لكنه تراجع خوفًا من أن يُعقب مالك ببعض الكلمات التي لا يحب سماعها.

أخيرًا تكلم والده..

– إتصلت بي فاطمة اليوم وقالت أن الفتاة تحسنت وهي تشعر بالراحة معها.

عقب مالك: الحمد لله

أكمل عبد الله:

– فاطمة ذكية، إستطاعت أن تُخرجها من حالة الحزن التي كانت تسيطر عليها ولم تعط لها الفرصة ليأكل الهم قلبها ويتوغل فيه، وأيضًا جو المرح الذي يبعثه عمر وعائشة كان بمثابة عامل كبير في عدم اعطائها الفرصة لتخلو بنفسها ويجد الشيطان منفذًا ليها يبث إليها الانهيار.

سأل يحيى:

– هل حكت لها عن سبب وجودها هنا وكيف قُتل أهلها أو أي تفاصيل آخرى؟

– لم تذكر لي غير أن أهلها قتلوا بالفعل، وهي تنقل شكرها لنا، وتطلب طلبًا غريبًا وأردت أن أشاوركما..

إنها تطلب أن نجد لها عملًا!

قال مالك:

– وماذا تظن أن فتاة في مثل سنها ستعمل!

رمقه يحيى بنظرة غضب من نبرة استهزائه هذه ثم قال:

– كنت متأكدًا أنها ستطلب مثل هذا الطلب.. الأمر في غاية السهولة

لتعمل معنا في المركز الدعوي نحن بحاجة ماسة لمثلها، تستطيع أن تُعلم الفتيات وتشرف على متابعتهن..

سيكون التواصل بالنسبة لها سهلًا فهي تجيد الإنجليزية..

قال والده:

– فكرة ممتازة، أحسنت يا يحيى.. سأعرض على فاطمة.

ما رأيك يا مالك؟

قال مالك وهو ينظر بابتسامة إلى يحيى:

- اقتراح موفق بالفعل.

قال يحيى لوالده:

- إن وافقت فلتأت السبت المقبل إلى هناك..

ثم إستأذن وغادر.

عندما خلا عبدالله بمالك قال له:

- هل تظن أن يحيى يعطي هذه الفتاة اهتمامًا كبيرًا؟

قال مالك وهو يبتسم:

- نعم.. ليس بالقدر الضخم، أو لعله يحاول ألا يظهر ذلك، لكنه منذ أن قابلناها وهو متغير، دائم الشرود، مستكين ليس كعادته.

عقب والد يحيى:

- كنت أخاف أن يحدث هذا ذات يوم..

هل تذكر التجربة التي مر بها قبل إسلامه؟ هل تظن أنه ربما تذكر " إيف"؟

- "إيف" ؟! الفتاة اليهودية!

بالطبع لا.. وما الذي سيجعله يتذكرها؟ يحيى تغير كثيرًا ولا أظنه تذكرها أبدًا منذ أن أسلم..

- غيرُ صحيح.. وماذا كان يفعل في المكان الذي وجدتما فيه شروق إذًا؟ هذا المكان كانا يذهبان إليه كثيرًا. ولا أظنه ذهب إلى هناك من فراغ! هل تتذكر كيف عانى بعد رحيلها وكيف خرج بصعوبة مما كان فيه؟

- نعم أفهم ذلك لكن ما علاقة هذا بشروق واهتمامه بها؟

- ربما ذكرته شروق بها..

حرك مالك رأسه بالنفي وقال:

- لا أظن ذلك.. الأمر بعيد جدًا

- ربما تعاطفه مع شروق ينبع من تذكره لإيف وافتقاده لها.

- لا أدري.. لكن سأحاول أن أتكلم معه ربما أفهم ما يدور في عقله.

***

تلقت شروق عرض العمل في المركز الدعوي بابتسامة هادئة، أغمضت عينها وتجسدت لها بعض الصور الجميلة.. صورة "ريم" صديقتها عندما أخبرتها بحلمها أن تشارك في أحد المراكز الدعوية، تلك الورقة الملونة الخاصة بخطتها لأسابيع العطلة.. السهم الذي يخرج من الدائرة المركزية مصوبًا برأسه نحو أحد الأهداف.

" المشاركة في مركز دعوي"..

وكأنها في خضم هذه المعركة الجديدة إلتقت بإحدي ضالاتها، رمقٌ من حياتها السابقة عاد ليُحيى فيها الأمل من جديد.

عندما أخبرتها فاطمة أنها ستذهب إلى المركز في مقابلة مع مديره وهو "يحيى"، رفضت متحججةً بأنها لن تستطع أن تتكلم مع هذا الشخص مرة أخرى أبدًا وعندما سألتها فاطمة عن السبب أجابت بأنها في غاية الحرج منه وكلما تذكرت أنه من أنقذنها وأحضرها إلى المستشفى ورأها على حالتها تلك تتمنى لو لم تقابله مطلقًا، ضحكت فاطمة لردها الطفولي ثم أقنعتها بعد محاولات كثيرة أن تذهب ووعدتها بأنها ستكون برفقتها .

سارت فاطمة وشروق معًا إلا أن وصلتا إلى المكتب الذي يتنظر فيه يحيى.. وقفت شروق أمام الباب تنظر إلى فاطمة مرة وتنظر إلى الباب مرة آخرى وكررتها لدقيقة.

ضحكت فاطمة وقالت: هيا ادخلي.. سأكون معكِ لا تقلقي.

دخلت فاطمة وتبعتها شروق كأنها فتاة صغيرة تتعلق بوالدتها، ثم ألقت فاطمة السلام، رد يحيى ودعاهما للجلوس ثم قال:

– كيف حالكما؟

ردت فاطمة:

– الحمد لله

ثم أشارت إلى شروق التي لم ترفع عينيها من الأرض منذ لحظة دخولها وقالت هذه "شروق"..

– مرحبًا بكِ أنسة شروق..

قالت شروق بصوت بالكاد يُسمع:

– أخبرتني فاطمة بعرضكم بالعمل هنا، وأود أن أشكركم لإعطائي هذه الفرصة، ما هي طبيعة العمل هنا ما سيكون دوري؟

– الأمر كما تُحبين، قولي لنا ما الإمكانيات التي تستطعين أن تقدميها؟

إنطلقت شروق تعرض الخطط والأفكار التي كانت دائمًا تود أن تفعلها لو عملت في مكان كهذا.

بدأت ترسم له تصورًا يعتمد على تصنيفات الفئات المختلفة وتقسيم العمل على ثلاث محاور..

نشر الإسلام لغير المسلمين ورعاية المسلمين الجدد ثم الاهتمام بالجاليات المسلمة التي تعيش في نيويورك، ومن ثم تقسيم المحتوى حسب الفئات العمرية والاحتياجات الخاصة.

وقامت بتقسيم العمل والأدوار على عدد من الفرق،كل فريق له خطة عمل خاصة به والمهمات المطلوبة منه تحديدًا.

كان يحيى يستمع إليها في دهشة شديدة، إلى كلامها وخططها المنظمة المدروسة، أبهرته الأورق التي سجلت فيها أفكارًا محددة بكل ما تقول ودراسة شاملة لكل فكرة باسقاطات واقعية ليست مجرد أحلام وخيالات.

أوقفها في وسط حديثها وسألها:

– كم عمرك؟ وماذا تدرسين؟

أحست شروق بخجل شديد فتدارك يحيى كلامه وقال:

– ما أعلمه أنك مازلت في الجامعة، هل قمت بإدارة مشروعات قبل ذلك؟

– لا لم يسبق لي إدارة أي مشروع .

عمري عشرون عامًا، كنت في السنة الثانية من الجامعة.. أدرس الطب.

– ومن أين تعلمت هذا التخطيط المنظم؟

– كأي مسلم لا يريد أن تتفلت منه حياته، هذه المعرفة بالنسبة له من متطلبات الحياة، يجب أن أكون على دراية بها حتى أدير حياتي الخاصة، وهي أكبر مشروعٍ أعيش له وإلا خسرت الدنيا والآخرة!

أصابه ردها بذهول تام، ثم قال:

– جيد جدًا، وأيضًا تجيدين الإنجليزية، هل تستطيعين أن تعلمي اللغة العربية لغير متحدثيها؟

– نعم سيكون سهلًا.

– شيءٌ أخير.. بما إنك لمحتِ لموضوعِ الفئات العمرية والاحتياجات الخاصة بكل فئة، هل بإمكانك أن تتولي دروسًا خاصة بالفتيات المسلمات في عمر المراهقة تتواصلين معهم بما أنك قريبة من عمرهم؟

– نعم، نبدأ من متى؟

قال يحيى بحماس:

– من الآن إن شئت، سأخذك إلى مكتبك وابدأي مباشرة وكل شيء سيكون رهن تصرفك.

***

دخل مالك غرفة يحيى فوجده جالسًا يتأمل بعض الأوراق غارقًا في الشرود حتى أنه لم ينتبه لدخول مالك..

– يحيى.. هل تسمعني؟

فزع يحيى عندما رآه وقال:

– مالك.. متى جئت؟

– هل جاءت هي؟

– لم أفهم! من تقصد؟

– أنت لا تعرف من أقصد حقًا؟ الفتاة الصغيرة!

– أي فتاة صغيرة؟.. هلا أوضحت؟

– التي تعيش مع فاطمة يا يحيى!

– هل تقصد شروق؟!

– نعم شروق يا عبقري!

ضحك يحيى بسخرية قائلًا:

– فتاة صغيرة! ليتك كنت معنا اليوم لتعلم من الصغير يا فتى، في الحقيقة هي الكبيرة ونحن الصغار..

– كم عمرها؟

– عشرون عامًا فقط، تصغرنا بخمس سنوات.

لكن أنا لا أقصد العمر، أقصد حقًا أنها أذهلتني، كنت أعتقد أننا مثقفون ولدينا خبرات عالية وفكر رفيع، لو تعلم كيف هدمت لي كل هذا اليوم، أحسست أنني لست على شيء!

– لهذه الدرجة؟!

– وأزيد.. الحقيقة التي صدمتني أنني كنت أتوقع أن أجلس كما قلت مع فتاة صغيرة. ربما لغتها الإنجليزية غير جيدة باعتبارها عربية، ليس لديها خبرة في شيء وكان اقتراحي لأن تعمل في المركز من باب مساعدتها ليس إلا.

لم أكن أتوقع أنني سأجد كل هذا الكم من الفكر المنظم، كان حديثها يخرج على قدر الاسئلة التي أطرحها، كل جملة تقولها بمثابة فكرة مكتملة، تشعر من أول وهلة أن الأمر متزن لديها، لا أتطرق لأي موضوع إلا ولديها فكرة شاملة عنه، بالإضافة إلى ثقافتها الواسعة التي إلتمستها مع كل كلمة، في أي موضوع خاص أو عام، له علاقة بما جاءت من أجله أو ذُكر قدرًا بين أطراف الحديث.

كنت أريد أن أزيد في الأسئلة حتى استمع لحوارها ولكن لم أحب أن أخرج عن القدر المطلوب.

– حقيقي هذا؟! ألم تذكر لك مصادر تعلمها؟

– سألتها إن كانت درست إدارة أو شاركت في إدارة مشروع من قبل، حيث أن جانب عرضها للأفكار مبني على نظام شديد قبل أن يكون على خبرة دعوية أو نشأة متدينة.

قالت أنها لم تدرس الإدارة إنما هذا أسلوبها المتبع في حياتها الخاصة وبالنسبة للأفكار الدعوية نفسها قالت أنها كانت تمارس أغلبها من قبل مع صديقاتها في مصر وعندما سافرت مع والديها إلى إنجلترا طورت منها حتى تجذب بأسلوبها غير المسلمات.

- هل أنت متأكد يا يحيى أنها الفتاة التي خُطفت وقتل أهلها ومن المفترض أنها تمر بفترة صعبة!!

- هذا ما كنت أفكر فيه طوال اليوم! أنا لم أتوقع منها هذا أبدًا، توقعتها أن تكون ضعيفة منكسرة لكن على العكس تمامًا، كانت في ثبات عجيب، وبالمناسبة كانت تضع حجابًا على وجهها هذه المرة.

- لا تنس أنها مسلمة، تعرف أن ما جرى قضاء وقدر ولابد أن ترضى به.

- مسلمة ولكن هل كل المسلمين لو وقع بهم هذا البلاء سيتصرفون بهذا الثبات؟

الكلام سهل جدًا لكن ما بالنا لو قعنا في الابتلاء نفسه؟

عن نفسي لا أعلم كيف سيكون تصرفي لو كنت مكانها.

- أوافقك، لو تركنا أنفسنا لما تفعل بنا الحياة سنضيع وينتهي أمرنا مع أول عثرة.

انتبه مالك من جديد إلى الأوراق التي يمسكها يحيى فسأله:

- وما قصة هذه الأوراق التي تتأملها؟

- إنها الأوراق التي سجلت بها مقتراحاتها.

- حقًا؟ حسبتها شيء آخر!

نظر إليه يحيى بغضب وقال:

- شيء آخر؟! بماذا فكرت يا ذكي؟

تفسد علينا دائمًا اللحظات الجدية!

قال مالك وهو يضحك:

– لحظات جدية! أسف لن أفعل هذا مجددًا ولن أقول لك بماذا كنت أفكر.

– هيا يا مالك قُل ولا تقم بإثارة غضبي!

– حسنًا لا تغضب.. كنت أظنها بعض الأوراق التي تحتفظ بها من كتابات "إيف" لك..

إستشاط يحيى غضبًا وإحمرت عيناه كأنما يتطاير منها الشرر وقال بلهجة شديدة:

– "إيف" ؟!! ماذا ؟! ما الذي يجعلك تذكرني بهذه الذكرى السيئة؟!

– اهدأ قليلًا! هذا طلب والدك.. كان يظن أنك مازلت تفكر فيها..

أحقًا هي ذكرى سيئة؟

– نعم أسوأ شيء يمكن أن أتذكره.

– أخبرني والدك أنك كنت تذهب إلى المكان الذي وجدنا فيه شروق معها! لماذا أخذتنا إلى هناك إذًا؟

– ذهبت إلى هناك معك حتى يشهد لي هذا المكان بعمل طاعة يا مالك!

بدلًا عن الأوقات التي كنت أقضيها معها هناك! كنت أريد أن يشهد المكان لي وأن ينسى كما نسيت أنا بقايا هذه الأيام وما تحمله.

لامست كلمات يحيى قلب مالك وتأثر لانفعاله بعدما رأى الدموع تغطي عينيه وهو يتكلم وكأنه فتح جرحًا عميقًا في داخله .

قال وهو يربت على كتفه:

– أنا أسف يا يحيى لم أكن أقصد أن أغضبك أو أذكرك بشيء تكرهه، أعتذر.. لو أنني أعلم أنه سيسبب لك هذا الإزعاج ما نطقت به والله.

هدأ يحيى ثم قال:

– لا عليك.. أريدك أن تفهم أن كل شيء تغير منذ أن أسلمت.

"إيف" مُحيت كباقي الظلمات وأُبدلنا نورًا في قلوبنا يا مالك!

***

– كنتِ مميزة اليومِ يا شروق، حقيقةً أبهرتيني.

– هل سيكون التعامل معه دائمًا يا فاطمة؟

– من؟

– يحيى.. تجاوبت معه اليوم لأن الأمر ضروري حتى يعلموا من ستعمل معهم، لكن بعد ذلك التواصل سيكون عبارة عن تقارير مكتوبة وليست نقاشات مباشرة كاليوم!

– لا بأس كما تحبين، بالمناسبة لم يرفع بصره في إحدانا اليوم..ثم ألم تلاحظي أن يحيى يشبهك نوعًا ما؟

إعتدلت شروق في جلستها ونظرت إلى فاطمة بجدية وقالت:

– يشبهني أنا؟! من حيث؟

– لا أدري.. ربما حتى في شكله، ليس أشقرًا.. شعره..

قاطعتها شروق بسرعة:

– فاطمة! كفي عن وصفه!

ضحكت فاطمة وقالت:

– حاضر سأتوقف.

***

أضحى الذهاب إلي المركز كأنه الغذاء الذي تعيش عليه شروق، كأن هذه الفترة كانت تُعيد إحياء روحها وتنبت الأحلام من جديد لتحلق داخلها،

دواءٌ لنفسها التي عانت من السقم وقتًا، وماءٌ يروي الأمال التي قاربت على الذبول في ثناياها..

إنشغلت بالعمل هناك وإنغمست فيه، تركته يمحي أثار الحزن الذي خيّم على قلبها طويلًا.

كانت تتجدد فيها السعادة مع كل شخص يعتنق الإسلام، يغمرها النور كما يغمرهم، وكان أكثر ما تحبه هو الاختلاط بالجالية العربية هناك..

كم كانت تُفتن برؤيتهم وبخاصة الفتيات المصريات وهي تستمع إلى كلامهم وتشتاق إلى الحديث بلهجتهم.. تنظر إلى عيونهم علّها تجد من تفتقدهم..

تجد في مداعبة الصغار اشتياقًا لأختها هند، وتلمح في عيون الأمهات بصحبة بناتهن حنان والدتها..

كانت تملأ روحها منهم.. وكأنها تتحس الذكريات في ملامحهم.

قد مر ما يزيد عن الشهرين في نيويورك من دون أهلها.

في هذه الأيام القلائل نضجت شروق كثيرًا، لا تمل من التضرع إلى الله أن يُهون عليها ويبدل حزنها فرحًا وأن يعينها على تحمل الابتلاء وألا تنهار في أي لحظة.

كانت تستشعر القوة بداخلها هناك في جوف الليل، حيث يبدو كل شيء ضئيلاً في هذه الدنيا.

وبين دمعاتها وسجادتها والدعاء الذي لا ينقطع في كل وقت أخذت عهدًا أمام ربها ثم أمام نفسها كان العهد بمثابة حبل النجاة، هو ألا تترك لنفسها وقتًا للحزن، أن تفتش عن الأمل، أن تضيء المصابيح المظلمة..

أن تعود من جديد وتوجه همها لغيرها وهذا بدوره سيُخفف عنها..

كانت على ثقة تامة أن ما زرعته سابقًا من الأمل في النفوس المحطمة كان لها زادًا.. فعندما أُبتليت هي هون الله عليه..

وكأن بذور الحياة التي نزرعها في غيرنا تنمو بداخلنا أولًا.. وستعود ثمارها إلينا في النهاية..

***

عادت شروق للكتب، تحضر الدروس التي تعطيها للفتيات، وجدت متعتها من جديد بعد فترة من هجر القراءة.

أعدت إحدى اللقاءات التربوية مع فتيات الجالية المسلمة محوره "كيف تكون فتاة طموحة لها حلمًا تسعى لتحقيقه".

بدأت شروق في عرض الموضوع عرضًا شيقًا كعادتها..

سألتهم "من فيكن تحب الروايات وتقرأها ؟؟"

رفعت أغلب الفتيات أيديهن، ثم أكملت شروق..

-" تمتزج مشارعنا مع أبطال أي روايةٌ وكأننا نعيشها بل وهناك بعض الروايات نتمنى أن نكون أبطالها، ربما لأن أبطالها مثاليين أو حققوا أمرًا بطوليًا وددنا لو أننا نحققه، وينسى أغلبنا أن هناك رواية آخرى تنتظر منّا أن نكون أبطالها.. وهي حياتنا!

لما لا تكون بطلًا مميزًا في حياتك؟ ربما يومًا ما تُكتب عنك قصة ملهمة لمن حولك،

لما تُفوّت على نفسك فرصة أن تكون البطل المنتظر لهذه الأمة؟"

بدأت تقص عليهن قصص شباب من المسلمين على مدار التاريخ كيف أثروا وغيروا.. وتشرح لهم نماذج حيّة لناجحين وكيف كانوا يخططون لحياتهم.

طلبت منهم أن يسيروا على ذلك النهج ويضعن هدفًا أسمى هو "عبادة الله" لأن من أجل هذا خُلقنا ثم تتفرع منه كل الأهداف الصغيرة التي تتوزع وتتنوع حسب أهميتها حتى تكتمل الغاية الآخرى وهي "تعمير الكون"..

ثم بدأت تضع كل شيء بمقداره من حيث انشغالنا بالتفكير فيه، مثل الدراسة والعمل والزواج وباقي أمور الحياة، وكيفية الموازنة بينهم وترتيب الأولى منهم فالأولى..

ثم ذكرتهن بواجبهن نحو الأمة كلها، من حيث متابعة أحوال المسلمين ونصرتهم.

قالت لهم بلهجة جدية:

"إياكِ ثم إياكِ أن تأت إلى الحياة ثم تذهبي كأن لم يكن شيء! ألا تتركي أحلامًا تنبض بعد أن يتوقف قلبكِ عن النبض."

كانت الفتيات متفاعلة معها بشكل كبير، يستمعن إليها باهتمام وكانت تطرح بعضهن عليها أسئلة، كانت بعض الإجابات تجعلها تتطرق أحيانًا لحياتها الخاصة وعن أحلامها وأهدافها وما تحقق منها وما تسعى إليه الآن..

ثم طلبت من كل واحدة أن تأتي اللقاء القادم بورقة تحتوي على أهدافها الخاصة في الحياة وتفكر في طريقة لتحقيقها وتسجل الصعوبات التي تحسب أنها ستُعيقها، ثم تبحث عن شيء مميز لديها يكون بمثابة ثغرٍ تعمل عليه.

كان "يحيى" يتابع باستمرار التقارير الخاصة بكل ما يُقَدم في المركز وتُسجل المحاضرات ويتم تفريغها حتى يتم الاستفادة منها على نحو أوسع، وبالطبع كان لا يفوته التدقيق في كل ما تقدمه شروق والمرور على التقارير المكتوبة التي تعدها، كان يقرأ ما تكتب بكل جوارحه وليس فقط مجرد اطلاع أو قراءة عابرة، كانت تصيبه كلماتها إصابةً مباشرة، في عقله تارةً وفي قلبه تارةً آخرى.

ذات مرةٍ كان يراجع تفريغ إحدى محاضراتها، في الحقيقة شغلته المحاضِرة عن المحاضَرة.. وجد نفسه هذه المرة يفكر في شروق بجدية، حاول أن يصرف هذه الأفكار عن رأسه ولكنها تأبى!

بدأ يحدث نفسه..

" لم أر فتاة مثلها قط! لا أفهم كيف لمن في مثل سنها أن تشعرني وأنا لا أتوقف عن المطالعة أبدًا بأنني ضئيلٌ أمامها! لا يشغلها شيٌ عن شيء!

وأي ثبات هذا الذي هي فيه! كلما تذكرت أنها بدون أهلها تقف هذه الوقفة وتصمد في وجه الابتلاء هكذا، تتحدث عن الأحلام والأهداف! ربما كان الأحرى أن تتحدث عن الابتلاء والرضا ولكن كأنها تحاول أن تُنحي ألمها بعيدًا بعيدًا حتى يضمر ولا يبقى منه شيء!

أي فتاة تلك التي تسبح مع الاحلام في عمق الابتلاء ؟!"

عاتب يحيى نفسه بالانغماس في التفكير ثم تذكر اتهام "مالك" له بأن اهتمامه بها زائد! ثم تسائل.. هل أصبح اهتمامي بها زائدًا فعلًا؟

هز رأسه ليصرف هذه الأفكار وقال:

" حسبك! لن أسمح لك بالوقوع في أي معصية.. فلتكف الآن!"

صمت قليلًا ليستمع إلى الأصوات المتداخلة التي تعلو داخله..

" ولما تكون معصية؟ لما لا تكون حلالًا!"

إتسعت عيناه بشدة وقام من مكانه.. بعد أن قفزت فكرة إلى رأسه:

" حلالًا؟! حقًا! أي تكون زوحتي؟ هل أنا معجب بها؟؟"

لحظات من الذهول.. فكر بها مرة آخرى.. أحس أن ضربات قلبه تتسارع ، بدأ يدور في الغرفة بارتبارك..

" حسنًا اهدأ قليلًا.. وما المانع لو أنني أردتها زوجة؟

هل سترفضني؟ أخاف أن يكون لها حسابات آخرى!

ثم كيف سأواجه أبي؟ وماذا سيقول "مالك"؟ وقعت في حبها؟! "

فجأة وجد يحيى الأحداث تتسارع، وتتجمع الأسئلة في رأسه وتتحرك مشاعره، تثبتت الفكرة بداخله وبدأ يقنع نفسه أنه لا بد ألا يترك هذه الفتاة تضيع منه، لن يجد زوجة مثلها، من يرد شيئًا عليه أن يضحي من أجله ثم يتحمل النتائج ويرضى بها، حسم أمره ثم قال:

" لابد أن أكون قويًا، ربما تذهب الفرصة ولا تأتي أبدًا!

سأذهب وأخبر والدي.."

***

دخل يحيى إلى غرفة والده، وجده يقرأ في أحد الكتب..

ألقى السلام وقبل رأسه ثم جلس مبتسمًا

– ما بك يا يحيى؟ أشعر أن هناك أمرًا ما!

– أحب أن أجلس معك الليلة هل تمانع؟

– ليست عادتك! هل فعلت شيًا؟

ضحك يحيى وهو يقول:

– لا والله لم أفعل شيئًا، فقط أردت أن أسألك لماذا لا تتزوج؟

أغلق والده الكتاب ونظر إليه بجدية..

– هل تمزح يا يحيى؟

– لا.. لا أمزح.. لماذا لا تتزوج؟

– أتزوج وأنت في الخامسة والعشرين؟! كنت فعلتها منذ عشر سنوات!

من يوم تركتني أمك..

– لا أفهم ما المانع؟

– المانع أنني كبرت وأنت كذلك.. كبرت! وأنا الذي أتوجب عليّ أن أسألك..

لماذا لا تتزوج يا يحيى؟

قال يحيى وهو يحاول أن يخفي ضحه:

- حسنًا.. أريد أن أتزوج..

- حقًا! أتتكلم بجدية؟!

- نعم في غاية الجدية.

- إذًا هكذا كان الموضوع!

- لا حقاً ما المانع أن نتزوج معًا..

-كف عن المزاح يا يحيى.. هل تفكر في الزواج حقًا؟

- نعم والله، وجئت أخبرك بمن أريد.

- هل حددت بمن تريد أن تتزوج ؟!!

-نعم.

صمت والده للحظات ثم قال:

- هل أعرفها؟

قال يحيى ببطء وارتباك:

- نعم.

- هل هي "شروق"؟

ابتسم يحيى ثم قال:

-ما رأيك؟

–كان لدي حدس أنك ستطلب هذا يومًا، بالمناسبة يخبرني مالك عما تحكيه عنها..

قال يحيى وهو يكتم غيظه:

– مالك! دائمًا يفضح أمري هكذا!!!

– لا.. أنت من تفضح أمرك بنفسك.

– لكنني لم أخبره بأنني أريد أن أتزوجها!

– تلك الأشياء لا تُقال.. إنما تُرى من بين عينيك.

رفع يحيى إحدى حاجبيه وظل يُحملق في وجه والده ثم قال:

– ماذا؟!

قهقه والده..

– ما بالك يا يحيى لم تفهم ما قلته؟ أعيده على مسامعك مرةً آخرى؟

–كيف يُرى من بين عينيّ وأنا لم أقرر الزواج منها إلا أمس؟

– وقبل أمس ألم تكن تفكر فيها؟

تلعثم يحيى في كلامه..

– وهل كان واضحًا لكما؟

قال والده بتحدٍ:

- بالطبع أيها المُغرم، ألا ترى نفسك وأن تتكلم عنها، وجهك أحمرٌ كالفتيات حين يخجلن! ربما يكون واضحاً لها هي!

فزع يحيى وقال في تزمر:

- لا! أنا لم أحدثها بصورة مباشرةً سوى مرتين! ووالله لم أرفع بصري إليها!

قال والده وهو يضحك:

- مراهقٌ أنت يا يحيى، تتصرف كطفلٍ مهما كبرت..

أمزح معك بالطبع.. ولكن هل أنت متأكد من أنك تريدها زوجة فعلًا أم أن الأمر مجرد انبهار بها؟ لأنك أصلًا لم تتعامل مع فتاة مسلمة تعاملًا مباشرًا منذ إسلامك وربما يكون هذا الأمر مجرد خاطر ويذهب.

- لا أظنه مجرد خاطر.. هل هناك مشكلة لو تقدمت لها عن طريق فاطمة؟

- لا ليست هناك مشكلة.. لكن أريد أن أخبرك شيئًا..

توقع رفضها ولا تُصدم!

- ولماذا ترفضني؟

- ولماذا تقبلك؟

المشكلة إنها ربما تتعلل بظروفها، أو ستقول كيف اختارني وهو لا يعرفني؟

- اخبرها بأنني أريد أن أتعرف عليها عليها من خلال لقاء بيننا.

- أنا فقط أوضح لك الأمور حتى لا تُصدم من ردة فعلها.

تنهد يحيى ثم قال:

- ليدبر الله لنا الخير.

****

ظلت فاطمة تنادي على شروق وكأن أصابها شيء ما..

– شروق.. شروق

فزعت شروق وجاءت مسرعة من غرفتها.

– ما بكِ يا فاطمة؟ هل أصابك شيء!

– هناك شيء عاجل أريد أن أخبرك به..

– ما هو؟

– لا أعرف من أين أبدأ..

– تكلمي يا فاطمة قلقتني كثيرًا.

– يريد المهندس عبدالله أن يخطبك لابنه يحيى!

ظلت شروق واجمة، تنظر إلى فاطمة في تعجب.. ثم فجأة تحولت بعد الهدوء إلى إعصار من الغضب:

– يخطبني؟ لماذا؟ أنا لا أحتاج إلى شفقتهم هذه!

هم غير مضطرين لذلك وأنا لا أسمح أن يتعامل معي أحدٌ هكذا!

– اهدأي يا شروق لماذا تفكرين بالأمر هكذا؟ أي شفقة تتحدثين عنها؟ الأمر طبيعي جدًا يحيى تقدم إليك لأنه لن يحلم أن يتزوج بمثلك أبدًا!

– مثلي أنا؟ من لا يعرف أهلها؟ من لا يعرف عنها شيئًا أصلًا؟! لماذا يتزوج بمن لا يعرف عنها مستوى مادي ولا إجتماعي وهو صاحب المستوى الأرفع في كلاهما؟ ما يجبره إذا لم يكن الأمر من باب الإشفاق!

أنا لن أسمح أن ينظر إليّ أحد على أنني ضعيفة أحتاج عطفه.

– هوني على نفسك يا شروق ولا تأخذي الأمور بهذه الحساسية..

من أخبركِ بأنك ضعيفة؟

المهندس عبدالله قال لي بالحرف الواحد أننا نريدها أن تصبح من العائلة ولن نجد مثلها، من الانطباعات البسيطة التي أخذوها عنك وهو يريد أن يجلس معك ويتحدث بصورة طبيعية ويكون لك الرد في النهاية ترفضين أو تقبلين..

وأنا أستحلفكِ يا شروق أن تفكري في الأمر بهدوء ولا تتسرعي. أنتِ أكثر حكمة من أن تصدري هذه الأحكام بسرعة..

إنصرفت شروق بهدوء إلى غرفتها، كأنها غابت عن المكان بعقلها.

لم تعد تشعر بشيء حتى تلك الدموع التي كانت تجري من عينيها.. لم تكن تشعر بها.

تمثلت لها كل الصور المؤلمة من جديد.. ولم تفكر في طلب يحيى بقدر ما كانت تفكر فيما وصل حالها إليه!

كانت تحدث نفسها..

" كيف أتخذ هذه الخطوة بمفردي؟ لم أتخيل أبدًا أن أعتمد على نفسي في قرارٍ كهذا.. أتزوج في نيويورك ولا يوجد أحد من أهلي معي؟"

إستلقت على فراشاها وهي تتنفس ببطء..

"يارب.. لا أدري ما العمل!..

في نهاية المطاف أتزوج أمريكي؟ كيف هذا!

هو مسلم على أي حال.. لكنه لا يشبهني وظروف حياته ليست كحياتي!

المشكلة الحقيقية الآن.. إن رفضته.. ماذا بعد ذلك؟

لم يبق لي أحد من أهلي.. أهل والدي ربما لا يعلمون أصلاً بوجودي. وصعب أن أصل إلى أهل والدتي التي إنقطعت عني أخبارهم منذ سنوات.

هل حقًا أنا في حاجة لأن أترك ما مضى وأبني مستقبلًا جديدًا بدلًا عنه!

على أي حال سيأتي يوم أتزوج فيه.. لكن حتى يحدث هذا الأمر سأعيش في هذا الخوف والاضطراب والقلق من كل من حولي..

ربما لو تزوجت ستزول هذه الغربة وأجد فيه أهلي وسكنًا لنفسي..

ليتكِ كنت هنا يا أمي.."

نهضت شروق من مكانها ومسحت دموعها برفق ثم قالت:

هل كل مشكلة ستأخذ من روحي هذا القدر؟!

لا.. لن أنهكها هكذا.. سأستخير وليقضي الله أمره...

***

أتى يحيى في الموعد المحدد إلى بيت فاطمة

كأنّه طفل في أول يوم مدرسة.. أو ربما كأنه يحضر أول امتحان في حياته!

كانت شروق في خجل شديد،كان يحيى خائفًا من ألا ينجح في الامتحان وترفضه.

تفاجئ يحيى عندما رأها.. يبدو وجهها أصغر بكثير مما كانت تبدو عليه شخصيتها خلف الحجاب.

كانت هادئة خفيفة الطباع هذه المرة.. لا تتعامل بحدة كتعاملها معه سابقًا.

ترتدي فستانًا ورديًا، بلون الزهور التي أحضرها يحيى معه..

دخلت على استحياء وألقت السلام بصوت خافت، رد يحيى ثم بقيا في صمت لدقائق

إبتسم لها يحيى ثم قال:

– لا أدري حقًا كيف تطورت الأمور بهذه السرعة..

اعتذر إن كنت فاجئتك بطلبي لكن أحببت أن تتعرفي عليّ ومن خلالها توافقين أو ترفضين.

وقبل كل شيء أحب أن يكون رأيك بعيدًا عن أي مؤثر.

إن رفضتني لأي سبب ترينه فاعلمي أن هذا لن يُؤثر على أي شيء.

ألن تبدأي بسؤالي؟

قالت شروق بصوت هادئ :

– لما لا نبدأ بشيء مميز؟.. فلتحكي قصة إسلامك.

–قال يحيى مبتسمًا:

– قصة إسلامي.. ككل القصص.. وإن اختلفت في تفاصيلها.

لكن ما أشعر به وترك إنطباعًا في داخلي.. أنني كنت أسير في طريق مظلم

وفجأة.. أشرق كل شيء..

لا أدري هل نبع النور من داخلي فأشرقت الحياة.. أم أشرقت الحياة فأنارت داخلي..

وقعت كلماته في قلب شروق فتأثرت لها.

– ما أجمل تشبيهك!

– هل حدث لك شيء مشابه مثله، ربما في أمور أخرى؟

تنهدت شروق وقالت:

– حدث عكسه!

كأنني كنت أسير في طريقي وفجأة أظلم كل شيء، أظلمت الطرق بعد النور المبهر!

فهم يحيى أنها تتكلم عن حادث فقد أهلها وإستشعر نبرة الحزن في صوتها فحاول أن يتدارك الامر..

– لكنكِ قوية!

– أحاول أن أكون.

ألا تريد أن تسألني عن حياتي؟

- فلتخبريني بما تحبين أن أعرف.

إبتسمت شروق وقالت:

- حسنًا.. اسمي "شروق أحمد"

لوالد فلسطيني وأم مصرية..

كنت أعيش في مصر ومن ثم إنتقلت لأعيش في إنجلترا ثم جئنا لنقضي العطلة في نيويورك وكما تعرف بالحادث.. فقدتهم جميعًا..

أما بالنسبة لاهتماماتي، أعشق القراءة، حفظت القرآن منذ سنوات.. وكنت أدرس العلم الشرعي بجانب دراستي..

أحاول أن يكون لي أثر طيب، متفائلة بحجم الكون.. أردت أن أعيش لهدف وكانت لدي أحلام كثيرة ..

- كانت؟

- كانت ومازلت.. لكن إختلفت بعض الأمور الآن، أريد فقط أن أعيد ترتيبها..

- لو تحكين لي عن بعض أحلامك؟

إبتسمت شروق ثم قالت:

- تفاصيلها كثيرة .. ربما الوقت غير مناسب لحكايتها الآن.

- وأحلامك في من تريدين أن تتزوجي به؟

- مسلم بحق، يعلم حق الله عليه وحق أمته وحق نفسه..

مميز لا يعيش أيامًا تنقضي وفقط، لديه هدف ورؤية واضحه لحياته،

يقدم ويعطي لمن حوله بمقدار ما يعطي لنفسه، يحمل هم دينه وأمته.

وبالنسبة لحياتنا معًا.. يعلم كيف يتعامل معي، يشركني في كل شيء ويعاملني برفق.

– جميل.. لكن هذه رؤية عامة.

– بعض التفاصيل تتمثل بين ثنايا الكلام..

ربما سأريده يحمل قدرًا من القرآن في صدره، بعضًا من العلم الشرعي، على قدر من الحلم والحكمة، نظرته للحياة مختلفة.. متفائل لا يصيبه يأس..

لديه قدوة في حياته، يمكن أن نُجمل الأمر في قربه وبعده عمّا كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، دون الحاجة لكلام منمق..

– ثم ماذا؟

– لا شيء.. ربما تحمل هذه الصفات أو قدرًا منها..

هل تحفظ القرآن أم أن لغتك لا تساعدك؟

– أحفظ نصفه، ادع لي أن أتم الحفظ، وبالمناسبة أنا اتعلم العربية، لكن لا أقصد هذا.. هل هناك مواصفات آخرى؟

– ألا تكفيك هذه؟

–من خلال تعاملي معك أنك تحبين التفاصيل في كل شي.

نظر إليها بلطف ثم قال:

- أنتظر أن أسمعها

- ألم أقل أن بعض الأمور تغيرت؟

- نعم.. ولهذا أعلم أنك لم تقولي كل شيء..

- سيكون أفضل إن لم تعرفها، متعلقة بما مضى والذي اختلف كثيرًا اليوم.

- فلتكن معرفتي بها من باب إدراك تفكيرك.

- هناك بعض التفاصيل الصغيرة لكن الرؤية العامة هي ما قد تجمعنا.

الأمر ليس معقدًا.. كنت أحلم أن يكون محبًا للقراءة مثلي.. ربما بليغًا في اللغة العربية، يهدي لي بعض كتاباته.

كنت أتمنى أن يسافر والدي إلى أهله في فلسطين.. أتزوج منهم وأعيش بينهم ثم هناك.. يحدث كل شيء أريده.. يجاهد زوجي من أجل عقيدته هناك، أنجب منه أبطالًا يكملوا مسيرته.

ثم إبتسمت وقالت:

ربما تنتهي القصة بشهادة أو نحوها.

- هكذا تتخيلين حياتك؟

ربما لن أكون كل ما تريدين، لكن سأحاول أن أكون ولو جزء بسيط من حلمك.

- قلت لك تغيرت الأمور كثيرًا.. لم تعد المعطيات نفسها.

- هل كنتِ تتوقعين أن تتزوجين أمريكيًا في يوم من الأيام؟

- ربما لو كنت وقعت في الأسر!

ضحك يحيى لإجابتها ثم قال بلطفٍ:

- إذًا هل هناك أمل أن تقعي في الأسر بمعناه الآخر؟ كما وقعت أنا!

صمتت شروق ولم تجب، أحست بخجل شديد..

قال لها يحيى بعد أن لاحظ أنها لم ترفع عينيها:

- هل يمكن أن ترفعي عينيك للحظات؟

إرتبكت شروق ثم رفعت عينيها بهدوء، وسألته في نفس اللحظة سؤلًا حتى تخفي ارتباكها:

- أخبرتني فاطمة أنك تكبرني بخمس سنوات؟

إبتسم لها وهو يشير برأسه موافقًا

- نعم.. أسلمت وأنا في الثانية والعشرين والآن في الخامسة والعشرين..

أخفضت عينيها مرة آخرى، تذكرت فاطمة وهي تقول لها أنه يشبهها.

كان ذو شعر بني وكذلك عيناه ولحية خيفية تزين وجهه.

سألته شروق:

- هل لي أن أعرف ما الذي جعلك تظن أنني المناسبة لأن أكون زوجتك؟

- ببساطة، لأنك مميزة.. أحسست أن فيكِ شيئًا مختلفًا.

- هل تعيش لشيء محدد تسعى له؟

- بعد إسلامي.. ترتبت الحياة وسارت على نحو منظم.

وكأن الأهداف مفروضة بواقع الأمر.. واضحة ومحددة

تعلم الدين، حفظ القرآن ودروس اللغة العربية ..

ثم كان الحلم الأكبر أن نبني المركز الدعوي، وقد تحقق، هذا بجانب عملي.

– هل أخبرتك من قبل أنني كنت أتمنى أن يوافق والدي هذه العطلة أن أعمل في مركز دعوي؟

كان من ضمن أحلامي منذ تركت مصر أن أشارك في مركز هكذا.

– حقًا؟ يُحسب لنا تحقيق أول حلم لك حتى وإن كان عن غير قصد منا..

– في الحقيقة كان هذا بمثابة نقطة الضوء بين الواقع المظلم.

– نعم.. وربما تكونين سببًا في أن تتحول نقطة الضوء هذه إلى شمس منيرة تُشرق.. كاسمك!

****

إنتهى اللقاء الأول بينهما.. شعر يحيى براحة وازداد تمسكًا بها.

بينما شروق كانت تعيش صراعات في داخلها.. الأمر معقد لديها أكثر مما كانت تظن، ثم بعد دعاء وتفكير واستخارة.. وأيضًا نصائح فاطمة التي كانت لها نعم الأخت ولم تتركها أبدًا..

شعرت شروق بالرضا في داخلها.. وحل مكان الخوف والاضطراب سكينة وأمنًا.

وافقت شروق وتمت الخطبة.

صفحة جديدة مليئة بالأمل والحياة، تُنثر على أطرافها أوراق الياسمين.

من يبحث عن الفرج سيجده، ومن يحبس نفسه بين الهم سيموت إختناقًا..

وكأن شرط حدوث اليسر "الصبر على العسر" ثم الرضا.. والحياة كلها فيه..

ثم هاهنُا بهجة من اليوم.

سكنت روح شروق، نجحت في تخطي الابتلاء، فمنحها الله سعادة في قلبها، واستقرت بداخله.

جاء "مالك" إلى يحيى يهنئة بعد الخطبة، ذكّره وهو يبتسم:

– كنت تقول أن "إيف" مُحيت مع باقي الظلمات وأُبدلنا نورًا

وأنا أقول لك أن "إيف" مُحيت مع باقي الظلمات وأُبدلت " شروقًا "

ضحكا كثيرًا.. واختلط الضحك بالدموع.

ضحكٌ مع رضا واستشعار نعمة الله وكيف ينقذك من تدبير نفسك ويعطيك أفضل مما تتمنى.

لم تطل فترة الخطبة، إذ سرعان ما تم العقد وإتفقا على تأجيل العرس قليلًا.

في هذه الفترة إقتنعت شروق تمام الاقتناع بيحيى ورُزقت حبه وكذلك هو.

خططت شروق معه أن تكون فترة العقد بمثابة فترة تأهيلية قبل الزواج.

طلب منها أن يُعيدا تشكيل أهدافهما وأحلامهما حتى تصبحان واحدًا.

يرسمان الطريق لهما ولأولادهما.

أخبرته أنها كانت تحلم منذ فترة أن تجهز كتابًا تجمع فيه قصصًا من التاريخ الإسلامي لكي تقصه على أبنائها، وأوضحت له أهمية أن تغرس فيهم قصص هؤلاء الأبطال وإلا كانت قدوتهم أبطال أفلام الكارتون. وها قد حان الوقت لتجهيز هذا الكتاب.

أسمته " أبطال.. فكن مثلهم"

وعملت على انتقاء أفضل سير الأبطال ترويها في كتابها بطريقة ماتعة.

كانا يقرأن عن الحياة الزوجية وتربية الأبناء.. إتفقا على بذل كل شيء من أجل إنجاح حياتهما.

وعلى الجانب الآخر كان يحيى يكمل حفظ القرآن، وتساعده شروق في تعلم اللغة العربية كما طلب منها. وسعت هي الآخرى لتكمل دراستها الجامعية..

وأفردا وقتًا كبيرًا من أجل المركز الدعوي وإتسعت دائرة تأثيره.

وكان يعد مهمة شروق الأولى، كانت تبذل فيه كل جهدها.لا يمر أسبوع أو أقل دون جولة في شوارع نيويورك للتعريف بالإسلام.. ولا يمر يوم دون أن يُسلم أحدهم.

يكون هذا كدواء تطيب به نفس شروق، مع كل مسلم ومسلمة جديدة،

لشفاة تتحرك لأول مرة بالشهادتين.. تحلق روحها عاليًا.

*****

– يحيى.. لماذا تتطلعُ إليّ هكذا؟

– لا شيء، تذكرت كيف تقابلنا.

– نعم.. كأنني سافرت من مصر خصيصًا كي آتي إليك تُسمعني كل يوم هذه الكلمات.

ضحك يحيى..

– وما يزيد الموضوعِ غرابة هو أنك "مصرية"!

– وأنت "أمريكي"!

– لكني منذ أن أسلمت وأنا أخطط لأن أزور مصر.

ما رأيك أن نذهب إلى هناك بعد أن نتزوج؟

– حقًا؟! ولماذا؟!

– أريد أن أرى المجتمع الذي نشأتِ فيه.

– لالا، لا تحلم بهذا.. لا تقل لي أنك تظن أن المجتمع هناك مثاليًا!

– على الأقل مجتمع مسلم.

أليست الفتيات هناك تنظرن إلى الأرض في خجل مثلك؟؟

لم تتمالك شروق نفسها من الضحك..

– هل تظن أن الفتيات هناك ينظرن إلى الأرض؟

مسكينٌ أنت.. الأمر ليس كما تتخيل

في كل مجتمع يوجد فيه الجيد وغير الجيد.. ستجد كل شيء هناك.

ما يربطني بمصر أصدقائي وذكرياتي معهم، المسجد وحلقات القرآن..

– لكن من خلال ما فهمت أنك تعلمتِ كل شيء هناك؟

– تقريبًا.. كل شيء بدأ من هناك.

كان الأمر يتمثل لي في شقين.

الأول وهو "نفسي" ..

كنت أحاول أن أصل لنوذج قريب من كل الفتيات.

أتميز في كل شيء قد يشغل بالهن، حتى يكون التواصل معهم سهلًا..

كنت إجتماعية بشكل كبير، قريبة منهم، حتى إذا إحتاجت أي واحدة لنصحية أكون أنا أول من تقصد.

الأمر الثاني هو " أن أكون ذا أثر"

مرحلة أن تترك أثرًا في كل من حولك، أن تأخذ بأيديهم معك.

ألا تكون أنانيًا، أن تُعلم الناس ما تعلمت، أن تحرص عليهم كحرصك على نفسك!

مهمة أن تنقذ من يعيش في الحياة بدون هدف..

كان الأمر على قدر من التعقيد هناك، لأنك تتعامل مع مسلمين.

أنت هنا في تعاملك مع غير المسلمين عندما تعرض عليهم الحق، يرفضون أو يقبلون ثم ينتهي الأمر. أما هناك فالوضع مختلف.

تتمثل المشكلة في معرفتهم للصواب لكنهم يرفضون بأن يدركوا أنهم مقصرين تجاهه، ولا أحد يعترف بخطأه.

سيتهمونك بأنك معقد، رجعّي، تعيش في زمان غير زمانهم.

كانت مهتمي الأولى أن أكسر هذا الاعتقاد في داخلهم، أن المستمسك بدينه ليس من كوكبٍ آخر كما يظنون.

بل هو متعلم.. مثقف.. متفوق.. إجتماعي.. مرح.

- كيف تفعلين ذلك؟

- كنت أتعلم كل شيء..

في كثير من الأحيان إذا بدأت حوار نصيحة مع فتاة.

أبدأ كلامي معها عن أهدافها وأحلامها ولماذا تعيش؟

وماذا تتعلم وتقرأ هذه الأيام؟

ثم أتطرق بين ثنايا الكلام عن العبادة والقرب من الله وألا تنسى أن هناك آخرة..

كثير من الفتيات كانت تحاول أن تهرب من الكلام وتطرح بعض المواضيع، ما كان يفاجئها أنني أكون على علم بكل تفاصيل أي موضوع وأكثر..

وكلما حاولت عبثًا أن تُوصل إليّ أن تمسكها بالدين قد يؤثر على حياتها بشكل سلبي، وأن الملتزم بدينه يعيش حياة منعزلة ويفّوت على نفسه فرصة حياة المثقفين والحياة المنفتحة العصرية.

تصل معي في نهاية الحوار إلى أن الحقيقة ثقافتها التي تتحدث عنها لا تتعدى معرفتها بألوان طلاء أظافرها!

– لذة الانتصار إذًا!

– لا.. ليس كذلك أبدًا.. اللذة لا تكون إلا عندما تطلب مني هذه الفتاة بعد فترة أن أتابع معها في الصلاة وحفظ القرآن.. أن تطلب مني مساعدتها في حل مشاكلها.

اللذة أن تجدها تسابقك على الطريق وتنافسك! دون جهد منك..

كل إنسان يبحث في داخله أن يُصلح نفسه ويرتقي بها، والنفس بطبيعتها تطمح إلى الأفضل والإنسان السوي هو من تثور غيرته عندما يرى أحدًا يسبقه على الطريق، ويحاول جاهدًا أن يلحق به.

الخطأ الذي يقع فيه صاحب أي رسالة يريد أن يزرعها في نفوس غيره..

هو انتظاره لأن يأتي الناس إليه.. والصحيح أن نذهب إليهم نحن لا العكس!

أن نزاحمهم على اهتماماتهم، لا أن نترك المكان الذي يتواجدون فيه مخافةً على أنفسنا من أن نُفتن!

أتدري لماذا ينحرف كثير من الشباب عندنا؟

– لماذا؟

– لأنهم يحاولون أن يُقلدوا غير المسلمين...

اللحظة الفارقة هنا.. لحظة حدوث "انبهار" بشخصية ما..

وللأسف دائمًا تكون هذه الشخصية زائفة.. من أبطال وسائل الإعلام .

ثم تبدأ مرحلة التقليد.. في كل شيء.. في الاهتمامات.. في المظهر.. في اللغة.

واجبنا نحن أن نصنع هذا الانبهار فنجذبهم إلينا.

وإلا لو بقينا كما نحن "تقليدين" لن نتحرك قيد أنملة.

قل يحيى وهو ينظر إليها باهتمام:

– أعترف أن خطوة " الانبهار" هذه أصابتني أنا أيضًا!

قالت شروق وهي تضحك:

– حتى الآن؟

– نعم.. المميز فيما تقولين أنكِ لم تذكري أي شيء عن عقبات، وبالتأكيد كان هناك!

– بل المميز أن تتعامل مع العقبات على أنها جزء من الإنجاز الذي تصل إليه.

ربما ينحرف الطريق منك وتشعر أنك فقدت السيطرة على زمام الأمور، ويحدث غير ما تتمنى، النقطة الفارقة هي كيف تحول هذا الانحراف لصالحك.

وفوق هذا.. التعامل بمرونة مع الأحلام التي تنتظرها.

ربما يحدث نقيد الحلم وتجد متعتك فيه.. عن تجربة!

– صحيحٌ هذا؟

– نعم.. ألم أخبرك أنني كنت أحلم أن أتزوج بمن هو بليغ في اللغة العربية؟

ثم أنا اليوم أتزوجِ من" أمريكي" لا يجيد التحدث بالعربية أصلًا..

ثم قالت شروق وهي تكتم ضحها:

وأحب أن أستمع لحروفك العربية وتلعثمك في القراءة كأحب شيء.

أحب إليّ من أبيات الشعر البلغية..

– أتمزحين معي؟

– لا والله لا أمزِح..

قال يحيى وهو يحدق في عينيها:

– أتعلمين؟ أفضل شيء سمعته منكِ اليوم.

– حقًا؟ إذًا سجله عندك في الكتاب الذي تسجل فيه.

– أي كتاب؟

نظرت إليه شروق بجدية.

– لا تقل لي أنك لا تخصص كتابًا تسجل فيه الأشياء المميزة التي تحدث بيننا؟

– لم تخبريني بذلك!

نظرت إليه وهي تقلد الأطفال في التعبير عن حزنها:

– أيجب أن أخبرك بكل شيء يا يحيى؟

– معذرةً! هل لديك كتيب خاص بي؟

- خاصٌ بنا.. بالطبع!

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت كُتيبًا ورديًا بلونها المفضل.. تتناثر عليه الورود المثبتة وشرائط فضية لامعة، بتصميم بديع مبهج..

- هذا هو..

- ما أجمله!

حاول يحيي أن يمد يديه ليأخذه فأبعدتها شروق وأدخلته في الحقيبة مرة آخرى.

- لا.. لا تحاول.. لن تأخذه.

- سألقى عليه نظرة فقط.. لن أخذه!

- ولا حتى نظرة واحدة..

- لماذا؟

- سأهديك إياه.. لكن ليس الآن.

- أريد ان أعترف لكِ بشيء...

لما تكلمت معكِ أول مرةٍ في المركز تكونت لدي فكرةٌ مثالية عنكِ، ولما رأيتك في بيت فاطمة غُلفت تلك الفكرة بمعانٍ أبعد ورسمت خيالات جميلة عن حياتنا، ثم بعد أن صرت لي أكتشفت ما هو أبعد عن خيالي

تيقنت أن تخيلنا لما نريد مهما بلغ في متعته لا يمكن أن يقارن بنشوة الواقع أبدًا، ووالله لو كنت جئت بورقة وكتبت كل ما كنت أريد من مواصفات قياسية أتمناها لما كانت ذرةً في ما أنا عليه اليوم!

وراضٍ أنا وأكثر عمّا وجدت.

أنا لن أقول تحقق حلمي فيكِ، فحلمي ليس شيئًا مقارنة بكِ!

تيقنت الآن أن فكرة المثالية في حد ذاتها بغيضة في مادياتها وقوانينها، وإنما الجمال الذي ستجده سيكون أبعد من مجرد مواصفاتٍ محددة كنت تحلم بها ووجدتها بعد بحث، ولكنها الأرواح! الروح وما تهوى وتألف.

اكتفت شروق بابتسامة ثم قالت:

– راضٍ أنت، وكذلك أنا.

لولا أن المكان ضيق لحلقت عاليًا!

*****

مرت هذه الأيام حلوة جميلة ،كأن السماء تقطرُ بسماتٍ فتُرسَم على وجههم.

ثم جاء شيء عكر صفو هذه الحياة، مرض " عمر" ابن فاطمة الأصغر، إشتد مرضه وإشتد معه كرب أمه..

وكذلك كانت شروق في شدة الألم والتوجع..

كانت تصلي الليل وتتضرع وتدعي له بالشفاء، وقفت شروق بجانب فاطمة تهون عليها مصابها.

حرص المهندس عبدالله على أن يتم علاجه في أكبر المستشفيات.

كانت تمر الأيام وهم ينتظرون شفائه، لكنه لم يأت.. لم يأت رغم انتظاره طويلًا.

والذي أتى هو الموت! مات عمر.. وعمت غيمة من الحزن.

كانت شروق في أشد ما تكون من الألم. لو رأيتها وفاطمة لم تفرق من أمه من بينهما!

ربما مر ذلك الجرح فذكرها بالجرح القديم، بعد كل ما جرى ولكنه يأبى أن يلتأم!

ولكن كعادتها تستنهض الهمة من جديد وتنفض عنها الحزن والهم.

كانت قوية من أجل فاطمة، ترد لها بعضًا من القوة التي استمدتها منها أيام محنتها.

علمت فاطمة في هذه الأيام أن الابتلاء لا يترك أحدًا، وأن أول شيء تسعى لأجله أن تعي ذاك جيدًا وتُمرن قلبك عليه.

ولأن الأشياء لا تأتي فجأة وإنما تحتاج مقدمات، فلابد أن تحرر رُوحك من أي أسر تعيش فيه، تجعلها حرة طليقة وألا تتعلق بالدنيا.

ولأن هذه الدنيا طرق وجسور كثيرة متفرعة، أكثرها مشقة .. " الطريق إلى نفسك "

ولهذا.. لابد أن تنتصر فيه أولًا.

أن تعبره في البداية ثم تمر من باقي الطرق، حتى تعرف خبايا نفسك ونقاط ضعفك تعالجها ثم تستريح وتستعد لمواجهة الحياة.

كانت شروق تبثُ إلى يحيى كثيرًا مما كانت تبثه لأوراقها.

نضجت كثيرًا ونضج هو كذلك، أصحبت تشبهه ويشبهها.. ليس مجرد المظهر فقط، وإنما الروحِ! إمتزجت روحهما معًا، أخذ كل منهما من الآخر ما يميزه فأنتج شيئًا مميزًا فريدًا.

كان يحيى يرى أن شروق أفضل شيء حدث في حياته، وكذلك شروق.

كانت تتمنى" لو كل الرجال مثل يحيى".

وكان يتمنى "لو كل الفتيات مثل شروق"!

****

ذات يوم، إستيقظت شروق على خبر مُفجع أليم..

تناقلت الأخبار أن قوات الإحتلال تشن هجومًا على إحدى المدن الفلسطينية..

كانت شروق تُشاهد التقارير المصورة على شاشات التلفاز وكأن الدم يغلي في عروقها، بكت كثيرًا.. واشتعل الغضب بداخلها.

كان يحيى هو الآخر يتابع مع والده ومالك الأخبار هناك، فلم يعد تحكم الجنسية الآن!

هو أمريكي لكنه مسلم! يتألم لألم أي مسلم في أي بقعة من بقاع العالم ويهتم لأمره، يغضب لغضبه ويثور لنصرته.

وما زاد من حدة الهم هو عندما وصلهم نبأ استشهاد والد" على" وأمه وأخته في إحدى هذه الغارات. تأثرت شروق كثيرًا عندما علمت بقصته.. كأنها فقدت والديها من جديد!

ويحيى هو الآخر فعل به هذا الحادث ما فعل، كانت نقطة تحول لديه.

كان يرى المشاهد المؤلمة التي تنقلها وسائل الإعلام ولا يتمالك نفسه،

كأن القذائف كانت تصيبه هو!

ثَقُل الهم بداخله، كان يتذكر كلمات شروق عن عشقها لفلسطين وهي لم ترها وكيف هي جزء من عقيدة كل مسلم.

كان كل لقاء بعد هذه الفاجعة لا يخلو من دموع شروق عندما يتطرق الحديث بواقع الأمر إلى مناقشة الأحداث التي تجري..

في هذه الفترة اقترب موعد زواج شروق ويحيى، لكن حوت هذه الأيام تغيرات كثيرة في نفس يحيى، ربما كان لشروق النصيب الأكبر من زرعِ هذه التأثيرات في نفسه.. بقصد أو عن غير قصد منها.

جاءها يحيى ذات يوم هادئًا على غير عادته..

- شروق.. احكي عن أحلامك كما كنتِ تحكين لي سابقًا.

إبتسمت شروق ابتسامتها الحانية:

- ولما لا نتكلم عن الواقع الذي يفوق الأحلام جمالًا؟

قال يحيى بصوت خافت:

- لكن ما بال الأحلام لو أصبحت حقيقة؟

- الأحلام تكون جميلة كونها أحلام لا تتحقق.. أي أن لذة الأحلام في صعوبة الوصول إليها!

- لكن على أي حال.. يبقى الوصول للحلم هدف تسعين إليه؟

- نعم بالتأكيد..

- تذكرين أول وعد وعدته لكِ؟

- ما هو ؟

- وعدتك أن أكون جزءًا من حلمك..

- أنت بالفعل جزء من حلمي.

- لا.. الآن أنا جزءٌ من واقعك! أنا أقصد أن أكون سببًا في تحقيق حلمك.

– وأنت كذلك سببٌ في تحقيق أحلامي.

– وماذا عن الحلم الأكبر؟

– أي حلم تقصد؟

– أخبرتني أنك كنتِ تتمنين أن تتزوجي من فلسطيني يجاهد من أجله بلده.

نظرت إليه شروق بجدية:

– مازلت تذكر؟! أخبرتك أن الأمور تغيرت.. وأنا سعيدة الآن بما أنا فيه!

تنهد يحيى بعمق:

– ماذا لو ذهبت إلى هناك؟

– ماذا تقصد؟

– أجاهد من أجل ديني.. إن لم تكن بلدي!

أحست شروق بوجع في قلبها وأصابها ذهول للحظات ثم قالت:

– تقصد أنك تريد أن تذهب إلى فلسطين؟

– نعم.

ابتسمت شروق ابتسامة تخفى اضطرابها وقالت:

– تغيرت كثيرًا يا يحيى.. أنا سعيدة لسماع ذلك منك، ربما في مرحلة ما نذهب سوياً إلى هناك.

– أي مرحلة؟ أنا أقصد الآن..

– الآن يا يحيى؟

– نعم، الآن.. تخيلت الأمر بكل تفاصيله.. غمضة عين سيحلو معها كل شيء، سأذهب إلى هناك.. وربما ينتهي الأمر بشهادة.

"كما تحلُمين" !

نطقت شروق بصعوبة:

– كما أحلم؟

– نعم.. كما تحلمين وكما أحلم أنا أيضًا

صمتت شروق.. كلما حاولت أن تنطق تفلتت منها الكلمات فلا تدري بماذا تُجيبه، ثم أخيرًا تكلمت:

– يحيى.. سيكون ذلك بعد زواجنا أليس كذلك؟

حتى نفكر في الأمر معًا بجدية ونخطط له.

– بعد زواجنا؟ سيصير الأمر أكثر صعوبة، سيزداد تعلقكِ بي وسيصبح الأمر غير هين عليكِ، وربما يكون هناك طفلاً، سيصبح الأمر أكثر تعقيدًا

قالت شروق معترضة ويكاد أن يخنقها البكاء:

– أتتكلم بجدية يا يحيى؟ هل خططت لكل شيء بدوني؟ وتستكثر علي أن أنجب منك طفلًا!

رق يحيى لكلامها.

– لا.. لا أقصد ذلك.. لكن ذلك هو القرار الأفضل من وجهة نظري..

- لكنني غير مستعدة لذلك الآن! غير مستعدة لرحيلك.

- لا تقلقي سيهون الأمر أليس ذلك كما تحلمين؟

- وبعض الأحلام مؤلمة بحجم السماء! وأنا أخشى رحيلك يا يحيى!

لن أتحمل أي جرح جديد الآن! لا تحملني ما لا أطق..

بالله عليك لا تفعل.. لا تفعل إلا عندما أكون مستعدة!

صمت يحيى يراقب دموعِ شروق التي تسيل بلا توقف، كان خائفًا من هذه المواجهة! لأول مرة يجدها ضعيفة أمامه..

قال وهو يحاول أن يصمد أمامها:

- أول مرة أجدك أقل همة مني!

- يا يحيى.. أنت لم تجرب شعور الفقد!

بالله عليك لا تفتت روحي مرة آخرى..

هل تريدني أن أكون وحيدة من جديد؟!

- هل سيكون الأمر أكثر حدةٍ من فقد أهلك؟

- أتريدني أن أعيد التجربة لأحكم من فقده أكثر حدة؟

- أقصد أنك قوية بما يكفي.. لن يتركنا الله.. كوني واثقة!

قالت وروحها تعلو وتهبط كأن رياحًا أصابتها:

– ولكني أخاف أن تغيب عني! لماذا تضعني أمام الاختبار من جديد؟

ماذا لو طاردني الانهيار؟ لو لم أصمد؟ لو فقدت الطريق ولم أستطع العودة؟

قل لي.. ماذا لو أعتمت الطرق أمامي؟ ماذا لو هويت يا يحيى؟

أمسك يحيى بيدها وشد عليها بقوة ومسح دموعها وقال بحنان:

– سيكون الرحيل إلى أماكن اللقاء، سنلتقي مرةً آخرى.. سأعود إن قدر الله.

– وإن لم تعد؟

إن قررت الرحيل.. فلتعلم أنك ستأخذ كل شيء معك!

بعد أن منحتني كل شيء ستأخذه فجأة!

نظر إليها يحيى بعتاب:

– لم أتوقع أن يكون هذا ردك.

فكرت شروق للحظات ثم قالت وهي تتوجع:

– فلتفعل ما نويت به يا يحيى.. لن أكون عقبة في طريقك.

– وماذا سيكون حالك إن غبت عنك؟

– ربما سأختنق.. لكن لا يهم!

أحس يحيى بوجع في قلبه، كان يتحاشى النظر في عينيها المليئة بالدموع،

ثم إستجمع قواه وقال:

– تختنقين؟

سأترك لكِ روحي تتنفسين منها!

***

ككل ليلة يمر على قلبها ما يأمله. تبيت شروق وأزيز صدرها مسموع، هذه الليلة كانت مختلفة!

لا تدري ما فعلته بها كلمات يحيى اليوم.. شعور عجيب متداخل.

تمر الأحداث من أولها في عقلها..

" كأن ما يحدث جزءٌ من حلم..

كيف لي أن أستوعب كل هذه الأحداث التي حملتها الأيام،

أتزوج من شاب أمريكي يريد أن يجاهد في فلسطين! يا للعجب!

أتذكر كم كنت أعيب على أبي كونه منشغلًا عن متابعة أخبار بلاده! كم كنت أتمنى أن يحمل هم بلده. ثم اليوم صدمني يحيى بقراره!

أؤمن أنني لم أعد بقوة كالسابق، كم صدمتني كلمته "كما تحلمين"!

كما أحلم!! هل تغيرت أحلامي؟! أم أن الواقع هو الذي تغير!

هل أخاف أن أخسره؟ ألم يكن هو منحة من الله يأخذها متى يشاء؟

ولكن "يحيى" مختلف.. مختلف عن أي شيء.

كم هو مؤلم أن تتصادم أحلامك مع نفسك التي أرادتها يومًا ما..

اقترب الفجر، وشروق على حالتها تلك، ويحيى هو الآخر على حالةٍ مشابهة تختلط مشاعره ويفكر بعمق فيا سيجري. كل على فراشه يتقلب يمنةً ويسارًا ويلازمه الأرق.

رن هاتف شروق، كان يحيى هو المتصل، أمسكت الهاتف وظلت تنظر إليه للحظات ثم فتحت الخط ولم تنطق..

نطق يحيى بصوت خافت:

– شروق.. هل تسمعيني؟

تنهدت شروق وقالت:

– نعم..

أراد يحيى أن يمازحها ليهون عليها..

– أردتُ أن أتأكد إن كنت تتنفسين أم لا؟

مازلت هنا لم أغادر نيويورك بعد..

– هل كنت تنوي أن تغادر من دون أن تخبرني؟

– لا، كيف أفعل ذلك؟

أقنعت والدي.. وسأسافر في خلال يومين.

– ثم ماذا؟

– لا شيء.. أردت أن أعرف هل راضيةٌ أنتِ أم لا؟

– أي شيء يُرضيك يُرضيني..

****

وقف كلاهما في صمتٍ يتأملان الشمس التي تُزين الفضاء، إلتفت يحيى إليها ثم قال وهو يشير إلى السماء:

– أتعلمين، سألمحك هناك مع كل شروق، سأجدك بين خيوط النور.

وأريد الآن أن أسمع منكِ ما يُريحني قبل أن أغادر..

نظرت شروق إليه بصمت، وكأنما تودع ملامحه.

قال يحيي وهو يبتسم:

– أنتِ "شروقي" ويجب أن تكوني فخورةً بذلك النور الذي وضعتيه في ثنايا روحي.

– وأنتَ أملٌ "يحيى" بداخلي..

رمقها يحيى بنظرة حبٍ ثم ودعها وإنطلق.

تبعته شروق بعينيها ..

كأن جزءًا منك يبتعد ويرحل، أن ترى روحك تُنتزع من بين أضلعك!

****

سافر يحيى إلى فلسطين بمساعدة صديقه " علي".

يسرت له هويته الأمريكية الدخول.. استطاع إقناع والده بصعوبة وأخبره أنهم يحتاجونه في أمرٍ ولن يُطيل السفر وسيعود قريبًا.

سافر وترك شروق.. بعد وداع قاسٍ..

شعرت برحيله أن الطيور غادرت السماء!

كان قرارًا صعبًا بالنسبة له هو الآخر.. تركها قبل زواجهما بشهرين.

أخذ معه ذكريات جميلة ومؤرقة في الوقت نفسه!

وورقة منها مكتوب على أحد وجهيها..

"أحُبك بعدد ذرات الهواء"

كان الأمر يبدو كأنه قصة من الخيال أو ماشابه والعجب كل العجب!

أن شروق تعيش في أمريكا.. ويحيى في فلسطين!

كانت تخبره أنها تجد في الاختلاف البسيط في أرائهما متعة خاصة.

وتحب أن تتبع رأيه، ولكن هذه المرة وجدت غُصة في اتباع رأيه!

****

بعد يومين من سفره جلست شروق وفاطمة تنظر إحداهما إلى الآخرى

تحمل نظرات كل منهما فضيًا من الكلام والمشاعر، بدأ فاطمة الحديث..

– لا أعرف ماذا أقول لكِ.. لكني على ثقة أننا لم نعد نحتاج إلى أي كلام.

كل ما نحتاجه الآن هو سلام واطمئنان داخلي.. وثقة بالله

– وثقتنا به أنه لا يُضيعنا أبدًا!

– شعورك مختلف هذه المرة؟

– شعوري غريب يا فاطمة..

ما أغرب الأيام وما تحمله!

في الحقيقة أدركت أنني لم أتعلم بعد! لم أتعلم الكثير..

أدركت أن العلم لا يوجد فقط بين صفحات الكتب التي كنت اقرأها..

هناك الكثير خارجِ هذه السطور!

بعضه تحصل عليه من ابتلاء.. من فقد عزيز.. من همٍ.. من فقرٍ أو من مرض!

والمرور من هنا ليس بأمرك أو مرادك، فستمر شئت أم أبيت!

وليس لك أن تعرض كإعراضك عن الكتب إن أردت..

حكمة الله جرت ألا يترك هؤلاء المهملين في أخذ العلم من بين ثنايا الكتب.

سيتعلمون رغُمًا عنهم ذلك القدر الذي يمكنهم به تجاوز حياتهم..

لأنهم سيمرون حتمًا من إحدى هذه الطرق! الفقر أو المرض.. الهم أو الفقد..

الابتلاءات الصانعة للنفس!

– أوافقك ما تقولين يا حبيبتي

إنها الابتلاءات الصانعة لنا.. وعلى قدر صغرها يكمن كبر تأثيرها في واقع الحياة.

***

وصل يحيى إلى هناك.. إلى "القدس"

كأن الهواء غير الهواء، نسمات عطرة، كان يحس ببهجة يذوب معها أي شعور بالهم أو القلق، وتتلاشى بجوارها أي حسابات أخرى..

كانت شروق معه بروحها.. بكلامها،كان يرى كل التفاصيل بعينها لا عينيه كأنّه يستمع لوصفها ولاشتياقها لأن تطأ قدميها هذه الأرض..

ثم أخذ عهدًا بينه وبين نفسه لو أحياه الله وعاد إليها سيأتي بها إلى هنا.

بدأ بمساعدة "علي" أن يصل لفصائل المقاومة هناك..

رُسمت له المهمة التي سيُنفذها، كانت مهمته الحصول على بعض المعلومات التي تحتاجها المقاومة، سيسر بهوية صحفي أمريكي.

مر أسبوع وشروق تنتظر أن تسمع أخباره..

أي شيء عنه! لكن لا شيء.. لا شيء سوى الوحدة القاسية!

عادت من جديد تبث للأوراق شكواها، سلاحها "سهام الليل"، دعوات بأن يحفظه الله ويرده.

كانت تتصفح كتابها الذي كانت تعده كي تهديه إياه،كانت تعنون الكتاب باسم "إليك"!

هذه الليلة أحست بغربة تفت ضلوعها، أحضرت قلمًا وبدأت تكتب إليه أول كلمات بعد رحيله، أول كلمات مؤلمة تخطها يمينها في هذا الكتاب بعدما كان يحمل أنفاس الربيع في داخله..

" إليك..

سلاماً إلى روحي ونصفها الآخر..

لا أدري هل اشتكيك غياب روحي أم أشتكي روحي غيابك!

وما غياب روحي إلا غيابك!

وأما ما أدريه حقًا..

أن هناك الكثير من الخواء.. الكثير من الألم!

جفافٌ في داخلي! غريبةٌ أنا على نفسي..

كنت أحسب أنني أقوى من ذلك!

ولكنّي ضعيفة..

ضعيفةٌ اليوم أكثر من أي وقتٍ آخر..

أعترف لك أنني لم أكن أتخيل أن أتعثر هكذا.

تعثرت.. ولكني لم أسقط.. متماسكة! أو أحاول أن أكون!

إعتقدت بأنني مررت بما هو أصعب بكثير، وأن روحي إكتسبت صلابة تقوى بها على أي ابتلاء!

ولكنها أصبحت هشّة..

مرارة الفقد لو تدري، وأي فقدٍ هذه المرة؟

كأن كل الأوجاع أخذت حقها من قلبي اليوم، تملكت مني،

ولم أجد من يخلصني ككل مرة، من يُلملم فتات روحي ويعيدها إليّ من جديد!

كنت "كما أحلم" يا يحيى..

وما يصبرني الآن أنني لم أحلم بهذه النهاية.. أنتظر نهاية أجمل..

ستأتي.. ستعود من جديد! أنا واثقة من ذلك.

وإن الله على جمعنا إذ يشاء قدير. ٠

***

إنطلق يحيى ذلك اليوم في مهمة استكشافية لبعض جنود الاحتلال في محاولة للاقتراب منهم وصنع علاقة معهم تُسهل له مهمته.

لمح هدفه من بعيد.. شابًا يهوديًا تسير معه فتاة، ثم كانت المفاجأة التي صعقت يحيى!

تحجر في مكانه وتجمد الدم في عروقه، كان صدره يعلو ويهبط، إزدادت دقات قلبه بشكل مريب! تراجع خطوات، كاد أن يسقط من شدة الألم الذي أصاب رأسه.

إنها هي.. أجل يعرف تلك الفتاة جيدًا، حدث نفسه.. هل يُعقل أن تكون هي؟

أخذ يهدأ نفسه ويتنفس بهدوء.. عاد يدقق النظر

هذه الملامح يعرفها جيدًا! تأكد منها.. أخذ قراره بالانطلاق نحوها،

اقترب منهما ثم نادى عليها:

– " إيف"! أهذه أنت؟

توقفت الفتاة وتجمدت في مكانها!

كانت نظراتها تائهة مشتتة ثم نطقت وهي تبتلع ريقها بصوبة:

– " ستيفن"! ماذا تفعل هنا؟

– بل أنتِ! ماذا تفعلين هنا؟

نظرت إلى رفيقها:

– لقد سافرت مع أهلي هنا منذ سنوات والآن أنا في خدمة جيش وطني، كما أراد والديّ..

شعر يحيى بغضب شديد، قال وهو يكتم غيظه:

- إذًا تركتني من أجل ذلك؟

أحست بخجل من نظرة رفيقها.. قالت وهي تشير إليه:

- ستيفن.. أعرفك بصديقى" دانيال"

لم يلتفت إليه يحيى.. وظل ينظر إليها

إستأذنت " إيف" من صديقها وأخذت " يحيى" بعيدًا عنه بخطوات

أبعدها عنه..كان ينظر إليها نظرة تُشعرها بالعتاب وهو في داخله نار تشتعل!

قالت برقة:

- " ستيفن".. هل كنت تبحث عني؟ هل جئت إلى هنا من أجلي؟

مرت على ذاكرة يحيى بعض الذكريات..

صورة شروق.. الصور التي تناقلتها وسائل الإعلام للدمار الذي سببته ضربات الاحتلال،

بكاء " علي" وهو يخبره نبأ استشهاد والديه..

أحس بكره شديد تجاهها، ثم فجأة جالت في رأسه خاطره.

- ستيفن.. لماذا لا تُجب؟

أنا أسفة. لكن لا بد أن ترحل، لا يمكنني أن أعود.

تنهد يحيى ثم قال:

- هكذا بكل سهولة؟! بعد كل ما فعلته من أجلك!

– تغير كل شيء!

– نعم.. تغير الكثير بالفعل، لكن هل لي بلقاء أخير يا "إيف"؟

ثم بعده سأرحل.. أرحل ولن أعود، لكن هذا الموعد فقط وبعده سأنهي كل شيء!

وافقت "إيف" واتفقا على المكان والموعد..

****

توجهت شروق إلى المركز الدعوي، دخلت شروق إلى مكتبها فتفاجأت بوجود فتاة تنتظرها منذ الصباح الباكر..

فتاة تبدو مقاربة لها في العمر، لا ترتدي حجابًا يبدو من مظهرها أنها غير مسلمة، شقراء ذو شعر أصفر وعينين زقاوتين.

– مرحبًا، أسفة إن كنت جئت بدون موعد سابق ولكني أحتاج إليكم.

– لا بأس حبيبتي، نحن في خدمتك في أي وقت.

– أشكركِ، أنا"ماري".

– أهلًا بكِ يا ماري وأنا شروق..

لاحظت شروق أنها مرتبكة، يبدو الاضطراب واضحًا في نظراتها كأن هناك ما يقلقها ولا تدري كيف تنطق به، سألتها شروق حتى تسهل عليها الطريق:

– هل يمكننا أن نساعدك بشيء يا ماري؟

تعلمين أن هذا مركز خاص بنشر الإسلام.. هل أنتِ بحاجة إلى من يشرح لك الإسلام أو هل لديك تساؤلات؟

– نعم.. لكن قبلًا هل يمكنني أن أتكلم مع مدير المركز؟

– مدير المركز نفسه؟

– نعم، أريده في أمر شخصي.

– لكن المدير ليس موجودًا في نيويورك هذه الأيام.

أحست الفتاة بخيبة وقالت:

- ولا حتى "ستيفن" ؟

تعجبت شروق عندما سمعت ذلك الاسم، ثم تذكرت أنه اسم "يحيى" قبل إسلامه!

- هل تعرفينه؟! هو الذي يدير المركز، اسمه الآن " يحيى"

هل كنتِ تريدين والده؟

- نعم.

- معذرةً هل يمكنني أن أعرف لماذا؟ هو لا ياتي إلى هنا إلا في مواعيد محددة.

صمتت الفتاة وبدأت تتجمع الدموع بعينيها، أحست شروق بأنها على وشك البكاء فقالت:

- هل يمكنني أن أساعدك أنا لست أعمل هنا فقط أنا من العائلة، إن أردت أن أخبرهم بشيء.

نظرت إليها الفتاة متعجبة:

- من العائلة؟

- نعم.. أنا زوجة يحيى.

- حقًا؟! أنتِ زوجته؟

بدأت الفتاة في البكاء وكأن أصابها شيئًا ما، أُصيبت شروق بالهلع لمنظرها.

- ما بكِ حبيبتي هل يمكنني أن أفهم؟

قالت الفتاة وهي تبكي:

– لماذا تركاني إذًا و لم يبحثا عني؟!

لماذا تركاني كل هذه المدة وهان عليهم فراقي؟

لماذا ساعدا كل هؤلاء ونسيا أنني في أمس الحاجة إليهما.

– اهدأي قليلًا.. هلا شرحتي لي حتى أفهم ماذا يحدث؟

– أنا "ماري جونسون"

أخت "ستيفن جونسون".

– أخته؟! لم يخبرني أن له أختًا!

– ولماذا يخبرك! ربما لا يتذكر أن له أختًا!

– أين كنتِ تعيشين ولماذا تفرقتم؟

– كان والديّ على خلاف دائم وكانت أمي تكره الحياة مع أبي ولا تطيقه، أخذتني منذ عشر سنوات.

كبرت بعيدًا عن أبي وأخي وكنت تائهة، لم تهتم بي أمي كأي أم تحرص على ابنتها ولم تحاول أن تقترب من حياتي ولا أن تعرف عني أي شيء.

وكلما سألتها عن أبي وأخي تعنفني بشدة وتأمرني أن أنسى أمرهم.

منذ سنتين أخبرتني صديقتي عن إسلامهما حيث كان والدها على علاقة بوالدي من خلال العمل.

تعجبت كثيرًا وعندما أخبرت أمي قالت لي أنهما قد أُصيبا بالجنون ولهذا أبعدتني عنهما منذ زمن.

إقتنعت بكلام أمي وكنت أتحاشى التواجد في أي مكان يمكن أُن أعرف فيه أنه والدي، حتى صديقتي هذه قطعت علاقتي بها.

تعرفت على صديقٍ منذ أكثر من عام، كنت أقضي معه كل أوقاتي وأجد فيه عوضًا عما أفتقدته في البيت ووعدني ألا يتركني أبدًا.

كنت أطلب المال من أمي حتى أعطيه له، وبمرور الأيام زادت طلباته كثيرًا وكان يلح عليّ حتى أجد له المال من أي مصدر.

لم أفكر في أي لحظة بأنه يستغلني.

تعرضت أمي لحادثٍ مروعٍ كادت أن تفقد حياتها، فجأة أحسست بانهيار شديد وأنني وحيدة ولا أدري ماذا أفعل.

لجأت لصديقي أن يقف إلى جوارنا وكانت المفاجأة أنه طلب مني مبلغًا كبيرًا من المال مقابل أن يظل معي وإلا لن أراه مرةً آخرى..

تعللت له بأن أمي مريضة ولا أستطع أن أطلب منها أي شيء الآن، عاملني بطريقة سيئة وازدراء شديد وقال لي فلتذهبي إلى والدك لديه أموال كثيرة خذي منه بدلًا من أن يصرفها على تفاهاته التي يعمل بها ثم تركني ومضى.

أحسست بطعنة شديدة، أنني وحيدة في هذه الحياة.

قضيت هذه الفترة مع أمي حتى تعافت وعرضتُ عليها في ذات مرة أن أذهب إلى أبي ربما عندما يراني يحنُ إلى وجودي معه ويعود إلى صوابه ونعيش حياة طبيعة كأي بيت.

نهرتني بشدة وظلت على موقفها، ساءت حالتي النفسية ولم أستطع أن أجد عند أمي ما يهون عليّ..كانت ومازلت بعيدة عني!

هناك شيء مفقود في روحي كنت أبحث عنه ولا أدري ما هو..

تذكرت صديقتي التي تركتها وقررت أن أذهب إليها ربما أجد عندها ما يُريح نفسي.

في الحقيقة كنت أود ان أسمع منها أي أخبارٍ عن أبي وأخي.. رغم ما زرعته أمي من الكره تجاههما في داخلي إلا أنني أجد في قلبي حنينًا إليهما.

ذهبت إليها وكانت المفاجأة التي صدمتني.

أنها أسلمت!

عندما رأتني إحتضنتني وبكت، تعجبت كثيرًا لأمرها

عندما لمحتها وجدتها تغيرت كثيرًا ولم أصدق أنها صديقتي التي تركتها منذ شهور قليلة.

قالت أنها سمعت من والدها عن المركز الدعوي الذي إفتتحه والدي وأرادت أن تذهب إليه تطلعًا لما يحدث هناك!

أخبرتني أن الزيارة الأولى أثرت بها ثم عاودت الزيارات وأسلمت في المرة الرابعة.

كانت تصف لي شعورها وتبكي، وكنت أبكى لبكائها وأنا لا أعلم شيئًا مما تتحدث عنه، فقط أحسست أنها تتكلم عن راحة واطمئنان أفتقده.

تتكلم عن سعادة ظللت أبحث عنها ولم أجد إليها سبيلًا.

تأملت كيف كان والدي وأخي سببًا في أن تتغير حياة صديقتي هكذا وأنا حُرمت من كل هذا.

أصبح لدي سؤال يشغلني ويملأ قلبي همًا..

لماذا أتحمل أنا نتيجة قراراتهما؟

لماذا أعاني من عواقب خطأ إرتكبه أحدهما عندما قررا الانفصال وإنشغل كل منهما بنفسه؟

كنت أحتاج إلى أن أراى أبي وأخي فقط، وخفت من لحظة المواجهة، خفت أن يرفضاني.

هل جربتي شعور أن تشتاقي لأحد ربما لا يتذكر وجودك؟

وددتُ في الأيام السابقة لو تسللت أمام إحدى شركات أبي لألمحه من بيعد أو أرى أخي!

كنت أريد أن يحتويني أحدهما وأستقوي بهما.

كانت شروق تستمع إلى كلامها وإلى أنفاسها المُتعبة التي تأخذها من بين أنات البكاء.

لم تستطع أن تقاطعها، تركتها لتبوح بكل ما لديها.

كانت دموع شروق تسابق دموع الفتاة، ربما حوت بعض كلامها ما كانت شروق تعاني بعضه وتشعر به.

قامت إليها وقبلت رأسها ومسحت دموعها وإحتضنتها وهي تهمس في أذنها:

- لا بأس.. أنتِ بخير الآن، ستجدين ما يعوضك عما مضى.

والدك بالتأكيد يشتاق إليك وربما أراد وجودكِ كثيرًا لكنه يعلم رغبة والدتك في إبعادك عنه.

- وما ذنبي ببعض الأخطاء التي لم أرتكبها؟

- الأمر ليس كذلك يا حبيبتي، لا تندمي على شيء لم يكن لك دخل بحدوثه

وكلٌ منا معرض لأن تصيبه بعض هذه الأخطاء التي تذكرينها.

هذه هي الحياة.. لكن واجبنا أن نتدارك ونُصلح هذه الأخطاء عندما تحين لنا الفرصة، وألا يُسيطر علينا كبريائنا ونرفض الاعتراف بأن هناك ما يجب أن يتم إصلاحه.

والدك لن تسعه الدنيا عندما يراكِ، أنا متأكدة.

- هل سيتذكرني؟

- وكيف له أن ينساكِ!

- ما رأيك أن نذهب إليه مساءً؟

- كما تحبين.

- لكن هناك بعض الأشياء لابد أن تتم قبل ذلك، تقضين معي باقي اليوم؟

- نعم سأكون سعيدة بذلك.

*****

إنتهت المهمة الأولى وعلى الرغم من أن يحيى لم يصل إلى ما كان يسعى، إلا أن ما حدث كان نقطة صادمة جدًا بالنسبة إليه..

وحتى يحسم أمره.. بلّغ المسؤل الذي يتواصل معه وأخبره باسمها وعن علاقته السابقة بها، تفاجئ المسؤلون وإستبشروا بذلك، فهذه الفتاة محورٌ مهم وستكون صيدًا ثمينًا للحصول على المعلومات الازمة!

تعجب يحيى كثيرًا من نفسه، من ماضيه وما عليه حاضره الآن!

ذلك الشاب الأمريكي، يعمل الآن لصالح المقاومة الفلسطينة..

وفي الجانب الآخر تعد " إيف" عشيقته السابقة ألد أعدائه.

يا للمفارقة العجيبة! كيف تتغير الأشياء في لمح البصر أو أقل!

استعد يحيى للقاء إيف.. أحضر معه هدية،كانت هذه الهدية عبارة عن "قلادة" ثمينة، تم زرع بها جهاز تجسس دقيق.

ذهب يحيى إليها في الموعد،كانت هذه الخطوة قادرة على تحطيم المتبقي من أي رواسب تتعلق بماضيه.

أن يحسم أمره ولا تصيب همته أي ضعف أو فتور.. وألا يُفتن!

أعطاها يحيى الهدية.. وطلب منها أن ترتديها ليبقى معها بروحه كما أخبرها.. أن تحتفظ ولو بأثرٍ بسيطٍ منه..

كان لارتباك يحيى واظطرابه من صعوبة أداء الموقف وثقله عليه تأثيرًا إيجابيًا على عكس المتوقع.

فمن وجهة نظرها كانت لحظة فراقها عسيرةً عليه ولذلك يبدو عليه التأثر الواضح، لم تشك لحظة في أمره وظنت بالفعل أنه جاء إلى هنا ليبحث عنها.

****

دخل مالك إلى غرفة المهندس عبدالله:

- شروق تنتظر خارجًا ومعها فتاة وتريد أن تقابلك.

- فتاة! فاطمة تقصد؟

- لا فتاة شابة..

- حسنًا سأخرج إليهما.

خرج المهندس عبدالله، وجد شروق ومعها فتاة، ألقى السلام ورحب بهما، قالت شروق:

- لم أرك منذ أيام وأحببت أن أطمئن عليك.

- كم أبهجني وجودك هنا، إشتقت إلى أن أجلس معكِ حقًا.

- وأنا كذلك، جئت هذه المرة ومعي مفاجأة

نظرت شروق إلى الفتاة التي تجلس بجوارها وقالت:

- ألا تعرف من هذه؟

نظر إليها المهندس عبدالله في تعجب ثم نظر إلى شروق وهو يشير برأسه نافيًا.

كانت الفتاة ترتدي حجابًا ففهم أنها ربما أسلمت حديثًا.

نظرت إليها شروق وهي تبتسم وقالت:

- إنها " مريم "، أسلمت اليوم، "ماري جونسون" سابقًا.

وقع الاسم على مسامعه فأصابه بصدمة واتسعت عيناه وبدأ ينظر إليها ويتأمل ملامحها وهو لا يصدق ما يراه!

قال بدهشة:

- ماري.. أهذه أنت حقًا؟!

هربت الدموع من عينيها وقامت إليه، وقفت أمامه تنظر إليه بشوقٍ، ضمها إلى صدره وإحتضنها.

وقفت شروق تتابعهما من بعيد في صمت يعلو وجهها ابتسامة هادئة.

سقاها هذا المشهد بعضًا مما كانت عطشةً له.

لحظة عودة البعيد وتجمع الأشتات، شعور الارتواء بعد الظمأ.

سألت مريم بلهفة:

- أين ستيفن؟ ومتى سيعود؟

صمتت شروق ولم تدر بماذا تجيب.

رد والدها وهو ينظر إلى شروق بابتسامة:

- سيعود قريبًا.. سيعود ليراكِ.

عادت شروق في ذلك اليوم إلى البيت بمشاعرٍ مختلطة.

فرحتها برجوع مريم وفي نفس الوقت كانت تفكر:

" تُرى ما أخبارك يا يحيى؟ هل عادت مريم لتغطي غيابك؟

هل يمكن أن تكون عوضًا لوالدك عنك!

هل تُراك رحلت؟ لابد أن تعود يحيى، لابد ن تعود لأنني انتظرك!"

****

مر قرابة الشهر ونصف على رحيل يحيى، كانت شروق تحاول أن تهتم بأمر مريم وتنشغل معها، لكنها كانت تشعر بألم شديد كلما قادهما الحديث إلى شيء يخصه.

كأن النهار لم يعد نهارًا في عينها، كطائر بجرحٍ عميق، تحاول أن تصمد في وجه الرياح العاتية، ولولا الإيمان بالله والاطمئنان بالفزع إليه لتفتت قلبها.

كانت تعد الساعات والأيام تنتظره، لم ينطفئ الأمل بداخلها، بل ظل مشتعلًا يُنير الظلام الدامس..

في صباح أحد الأيام.. عند التاسعة صباحًا، تجهزت شروق لتذهب إلى المركز حتى تتابع عملها، فتحت الباب.

ثم تفاجأت بوجود هدية أمامها، نظرت في حديقة المنزل تبحث عن صاحبها.. تلفتت يمينًا ويسارًا فلم تجد أحدًا!

إلتقطت الهدية وهي تنظر إليها بدهشة شديدة.. فتحتها برفق.

وجدت كتابًا مزينًا مُبهرًا، دق قلبها ،كأنها رأت مثله قبلًا.. يفوح منه عطرٌ مميزٌ مؤلوف لها، أغمضت عينيها وقربته منها.. إنه عطر يحيى!

أنعشت هذه الرائحة الحنين المستكين بداخلها.

فتحت أول ورقة..كُتب عليها:

"كما تحلُمين"

ثم فجأة وبدون مقدمات.. لمحت طيفه.. وجدته أمامها!

تراجعت إلى الخلف من هول المفاجأة..

أخذ يحيى نفسًا عميقًا.. وقف ينظر إليها صامتًا يُتابع نظراتها ويبتسم..

ألقت شروق نظرة إلى الكتاب الذي تحمله، ضمته إليها.

ثم نظرت إلى يحيى مرة آخرى، حاولت أن تقول أي شيء لكنها لم تتعلم قبلًا ماذا تنطق في موقفٍ كهذا!

قال يحيى:

- هُناك موعد زفافٍ بعد أسبوعين، أليس كذلك؟

ثم ألن تُعطيني الكتاب الذي وعدتِ أن تُهديني إياه!

إبتسمت شروق بعد أن هربت دمعة من عينيها:

- كيف حالك يا يحيى؟

- كيفما أنتِ! إن كنت بخير فأنا كذلك!

- أنا بخير الآن يا يحيى.. الآن وفقط.

عاد يحيى وعادت معه الحياة إلى قلب شروق، أهداها كتابًا يُحاكي الكتاب الذي كانت تُعده له، أسماه "كما تحلمين"

مرت هذه اللحظات مليئة بالشوق والحنين، كانت عيونهما تحكي الكثير وتفضح ما تُكنه القلوب وتُخفيه.

حكى لها كل ما جري، نظرت إليه بعد استماعها لكل التفاصيل وقالت:

- إذًا كنت تحب فتاة يهودية تُدعى "إيف" ولم تخبرني بذلك من قبل!

غرق يحيى في ضحكه وقال:

- أهذا الذي أثار دهشتك ولفت انتباهك في كل ما قلت؟

قالت بتدلل:

- نعم.

قال وهو يشير إلى صدره:

- لا تقلقِ.. حكرٌ عليكِ ذلك القلب!

على كلٍ هل سيتم الزواج في وقته؟

- على رسلك، ربما يكون الفرح مضاعفاً هذه المرة

- كيف ذلك؟

- ربما يتزوج معنا أحدهما..

- من؟

- مالك

- هل خطط مالك للزواج؟

- لا.. أنا الذي خططت

- لم أفهم!

- اخترت له زوجة، لكن الموضوع لم يكتمل بعد.

إنها" مريم عبد الله "

اتسعت عيني يحيى ثم قال:

– من تكون؟

– إنها أختك!

– أختي؟!!

– نعم.

لقد أتت إلى المركز بعد سفرك بأسبوعين وأسلمت!

قام يحيى من مجلسه وهو يكاد يطير من الفرح وقال:

– حقيقيٌ هذا؟

الحمد لله الكريم! هيا لنذهب إليهم يا شروق.

ذهب يحيى إلى بيت والده، إستقبله والده بشوق كبير، سلّم على مالك رفيق دربه وإحتضن أخته التى لم يرها منذ أكثر من عشر سنوات عندما أخذتها أمه وتركته هو ووالده..

كانت أرواحهم تُحلق في السماء، تحكي عيونهم عن فرحةً لا يسعها أي شرح أو وصف.

تستشعرها في دفء أنفاسهم، وتلك الدموع التي تسيل بغير استئذان.

تزوج يحيى وشروق، وتزوج مالك ومريم ..

****

مرت الأيام والشهور، وضعت شروق طفلتها الأولى..

- سنُسميها " نور" ما رأيك يا شروق؟

- كما تُحب يا يحيى.

- لا بد أن تأتي شروق بـ " نور".

ذات ليلةٍ جلست شروق تحمل نور بين زراعيها وهي نائمة، كان يحيى يتأمل ملامحها البريئة ويبتسم، تتنقل عيناه بينها وبين شروق وهي تتابعه في صمت ثم قال:

- هل كانت تحتوي أحلامك أن تُنجبي طفلة جميلة كهذه؟

إبتسمت شروق وقالت:

- دعها نائمة حتى لا تُحيل هذا الجمال إلى صراخ إن إستيقظت.

- وصراخها جميل كذلك!

- حقًا؟ فلتستمع إليه غدًا إن أردت أما الآن فلن أسمح بهذا.

- تُرى يا شروق عندما تكبر ستُشبهني أم ستُشبهك؟

- يبدو أنها لن تُشبهني ولن تشبهك!

عيناها زرقاء وشعرها أصفر! تُشبه "مريم" كثيرًا

- في الحقيقة هي لا تُشبه مريم.. هي تُشبه أم مريم، هي نُسخة من أمي.

- حقًا؟ لماذا لم تفكر في أن تذهب لأمك يا يحيى؟

– ذهبت إليها بالفعل بعد أن أسلمت، لكنها طردتني بعد أن عرفت أنني أسلمت، كانت غاضبة بشدة، وأخبرتني أن أنسى أنني ابنها.

– ولماذا لم تحاول بعدها؟ لماذا استسلمت بسهولة؟

– الموضوع معقد أكثر مما تظُنين، من قبل موضوع إسلامنا

كانت تكره والدي وتركتنا منذ أكثر من عشر سنوات ولم تهتم لأمرنا يومًا

ثم زاد الأمر حدة بعد أن علمت بإسلامنا.

– لكن لا شيء يبقى على حاله، ربما لو حاولت ثانية لاستجابت.

أكنت تتوقع يومًا أن تُسلم أختك؟

– لولا المحنة التي مرت بأختي لما جاءت إلينا، ربما لم تكن تتذكرنا أصلًا!

ألا تذكرين عندما ذهبت إليها مريم بعد إسلامها وحكت لها أنها جاءت إلينا كيف كان ردها؟

كيف طردتها بكل سهولة؟ كل شيء بقدر الله، ولو أراد الله لأمي الهداية لهداها.

– ولكنك مطالب بأن تأخذ بالأسباب وتقوم بدعوتها يا يحيى.

–سأفعل يا شروق ربما نفكر في هذا الأمر في وقت آخر.

***

أثناء هذه الفترة لم تنقطع صلة "يحيى" بمتابعة أخبار المقاومة في فلسطين

ولم ينس عهده بأن يأخذ شروق إلى هناك إذا تيسر الأمر له..

اتفقا في هذه الفترة أن يقوما بإرسال المساعدات المالية والطبية على هيئة قوافل.

كان يساعده صديقه " علي" في الوصول إلى من يحتاج المعونات.

وكان لديهما متابعة مستمرة وصلة مباشرة مع الكثير من الشباب في فلسطين.

دبر يحيي زيارة إلى فلسطين مع أحدى القوافل وأخذ معه شروق ونور حتى يوفي بوعده.

عندما وصلت شروق هناك..

هُناك وعند أول قدم، فاض الحنين، وتراكمت الذكريات.

كانت تشتم للهواء رائحة كالياسمين، تُداعبها الذكريات التي كانت تحملها في طفولتها وهي تحلم أن تسافر مع أبيها إلى هنا.

نظرت إلى يحيي وقالت:

– أهٍ لو أن أهلي كانوا هنا! وددتُ لو كنت بصحبتهم.

إبتسم لها يحيي:

– لماذا نُرهق أنفسنا في التفكير فيما مضى ولا يد لنا في تغيره؟

فلتسمتعي بما نحن عليه الآن.

على كلٍ قد تحقق بعض ما تحلُمين؟

تنهدت شروق وقالت:

- نعم.. ولكن فاجأتني بعض الأشياء.

كنت أخطط لكل شيء وأتصور الأحداث بدقة، لكن عندما تأخذك الأمور بغتةً، تتسارع الأحداث ولا تسمح لك بترميم ما بقي.

- لكن لا بأس ببعض الأشياء التي تأتي بغتةً، في بعض الأحيان تكون أفضل ما نحصل عليه!

إقترب منها يحيى وهو يحدق بعينيها..

- ليت هذه الأشياء التي أتت بدون موعد قد أتت قبل أي شيء خططت له.

إبتسمت شروق..

- هل تعتقد أن لقائي بك من الأشياء المفاجئة؟

يا يحيى أنت ثمرة دعاءٍ سنوات.. أنت دعوة حملتها معي في كل سجدة قبل لقائك.

أنت حُلمٌ سعيت إليه وأنا لا أعرفه!

****

في خلال الأيام الأولى من الزياة تعرف يحيى على شابٍ من بين الشباب في أول أيام الزيارة يُدعى " محمد أحمد"، كانت ملامح وجهه مألوفة،كأنه رآه قبلًا.

إصطحب " محمد" يحيى في أحد المهمات التي كان يحتاج فيها من يرشده وتناقلا الحديث فيما بينهما.

–كم تعجبت كثيرًا حين علمت بأنك " أمريكي" الجنسية يا يحيى.

– أنا أشبهكم أليس كذلك؟

– نعم.. لكن أقصد أن شابًا أمريكيًا يهتم بالقضية الفلسطية!

– الأمر عقيدة يا محمد، لا مكان للجنسية هنا.

– معك حق.. لم ندرك هذا إلا متأخرًا للأسف

كنت أعيش أنا وأهلي في إنجلترا وسافرنا نقضي بعض الوقت في نيويورك، ثم حدث شيء جعلنا نستفيق!

قال يحيى بارتباك:

– هل يمكنني أن أعرف ماذا حدث؟

تنهد محمد ونظر إلى السماء كأنه يرى تلك الأحداث المؤلمة أمامه من جديد ثم قال:

– إعتدى علينا مجموعة من المجرمين، قاموا بخطف أختي وأطلقوا علينا النار، قتلوها ونجونا نحن.

سرت هزة عنيفة في جسد يحيى وأحس أن أصابه دوار.

وقف مكانه.. ولم يشعر بالأرض من تحته، نظر إلى "محمد" مرة آخرى .. تذكر ملامحه جيدًا.

شروق!! إنه "محمد" أخوها الأكبر!

– ما بك يا يحيى هل أنت بخير؟!

– أختك! شروق؟!

صُدم محمد عندما سمع اسم أخته على لسان يحيى، قال بنبرة تعلوها الدهشة:

– من أخبرك اسمها؟

– هل هي شروق؟؟

إنها.. إنها زوجتي!

وقف كلاهما ينظر إلى الآخر.. كانت الصدمة التي أصابتهما أقوى من أي كلمات.

قال "محمد" وهو يكاد يلتقط أنفاسه:

– يا رباه! شروق ما زالت على قيد الحياة؟ ألم تُقتل؟

– أنا لا أفهم! كانت شروق تظن أنكم قُتلم!

قص "محمد" على "يحيى" كل ما حدث، فهم يحيى أن المجرمين الذين إعتدوا عليهم قاموا بلعبة خبيثة، أطلقوا النار في الهواء وفي الوقت نفسه قاموا بعصب أعينهم جميعًا.

صرخ جميعهم عند سماع طلقات الرصاص، وظن كل واحدٌ أن الباقون قد قُتلوا، ثم قاموا بفصل شروق عن أهلها وأخبروهم أنهم قتلوها.

وكذلك أخبروا شروق أنهم قتلوا أهلها ولا مفر من استسلامها للعمل معهم.

عندما خُيّل إلى أهل شروق أنها قُتلت مرت الأيام عليهم شديدة صعبة.

كانت أمها لا تكف عن البكاء، تذكرت كم كانت شروق معارضة لأمر السفر ولكنهم هم من ضغطوا عليها، شعور بالذنب القاتل أنهم السبب فيما جرى لها.

بعد هذه الحادثة أدرك والد شروق ما كانت تحاول أن توضحه دائمًا.

كل شيء أضحى ضئيلًا بعدما فقدها، ذلك الوهم الذي كان يعيشه، حياة الاستقرار والراحة والمستوي المادي الرفيع، ثم لم ينفعه أي شيء من ذلك!

كان يحيى صامتًا لا حرف ينطق به أمام دموع والدة شروق عندما علمت بأنها مازالت على قيد الحياة، تلك الفرحة في عيني والدها وأختها الصغيرة ومحمد!

ثم هنا دموع مختلطة بفرحة، ها هنا بكاء مع صيحات السعادة.

قرر يحيى أن يأخذ أهل شروق إليها ويفاجئها .

إتصل بها.. كانت خارجًا تُنجز بعض المهمات، وجد يحيى الأمور مهيئة تمامًا للمفاجأة.

سيذهبون جميعًا وعندما تعود تجدهم هناك، ثم يقص عليها ما حدث.

تجهزوا وذهبوا بالفعل ينتظرون لحظة دخولها، مر بعض الوقت ولم تصل شروق بعد، تأخرت عن الموعد التي حددت فيه الوصول، عاود يحيى الاتصال بها مرة آخرى، لكنها لم تُجب.

بدأ يحيى يصيبه القلق لكنه كان يحاول أن يُخفيه، فكر في أن يذهب ليُحضرها بنفسه لكنه تراجع عندما سمع هاتفه.

كانت شروق المتصلة.

رد عليها وسألها مباشرةً :

– أين أنتِ؟

لم يأته صوت شروق، بل كان صوت رجل غريب.

أخبره بأن صاحبة هذا الهاتف تم نقلها إلى المستشفى إثر إصابتها في غارة ضربتها قوات الإحتلال!

سقط الهاتف من يديه.. كأن صاعقة من السماء أصابته!

ذهب الجميع إلى المستشفى، كان يحيى طوال الطريق يبكي ويشعر بطعنة في صدره.

كان يذرف دمًا لا دمعًا.

وجد يحيى" نور" مع إحدي الممرضات أُصيبت ببعض الجروح الخفيفة.

خطفها يحيى منها.. كان صامتًا لا يخرج منه إلا أنين بكائه، كأنه طفل صغير يتأوه.

توجهوا إلى غرفة العناية التي توجد بها شروق

تذكر يحيى يوم أن أخذ شروق إلى المستشفى، وانتظر الطبيبة تخرج كالمرة السابقة كي تطمئنه على حالتها، لكن هذه المرة كانت مختلفة!

كان قلبه ينبض بالدعاء ويتضرع أن تكون بخير، كانت كل ذرة في جسده تنتفض.. كان يرتعد بشدة

نظر إلى شروق، كم كانت نظرة قاسية!

فتحت شروق عينيها ببطء، إبتسمت له بصعوبة وتسللت دمعة من عينيها ثم حاولت أن تنطق كلامًا يُشبه الهمس:

- يحيى.. كم كنت أخشى ألا أراك.

هوى يحيى على الأرض ولم تسطتع أن تحمله قدامه، هز رأسه وهو ينطق بصعوبة:

- لا.. لا ترحلي! سيؤذيني رحيلك! بالله عليكِ لا تتركيني!

- يحيى.. ألن تُكمل المشهد الأخير من كتابك؟ "كما تحلُمين"!

سجل به هذه النهاية يا يحيى، إنها كما أحلم!

تراجع يحيى عندما دخلت أم شروق وحملت نور بين زراعيها.

تلك الأم المسكينة التي ما لبثت أن دخلت الفرحة قلبها، تمشي مُثقلة بالهم!

نظرت إليها شروق.. تشتت نظراتها بينها وبين يحيى وبين نور.

لا أحد يدري ماذا كان يجول في قلبها في تلك اللحظات لكن المؤكد أنها كانت راضية، مطمئنة، أن روحها بيضاء وإن اصطبغت ملابسها بلون الدم.

قالت بصوت ضعيف:

- أمي..

ثم حاولت أن تنطق بأي حرف، لكن ذابت الكلمات على شفتيها.

ثم بدأ يقل نبضها.. تمتمت ببعض الكلمات ثم أغمضت عينيها.

رحلت شروق

رحلت وتركت أحلامًا تنبض كما كانت تتمنى، رحلت بعد أن زرعت ورودًا متناثرة في كل مكان تذهب إليه، ذلك الضوء الذي كان يُشرق أينما تحل!

أغمضت عينيها.. وأُسدل الستار على ذكريات جميلة.. وأُمنيات بريئة.

وجد يحيى سلواه في "نور"، تركتها له شروق يستنشق منه الهواء حتى يعيش، كان لا يفارقها هي وكتب أمها..

كنزها الثمين الذي خلفته، كل ما خطته بيمينها!

كتابها الذي كانت تبث فيه آلامها عندما تمر بأي محنة أو ابتلاء، كتابها الذي كانت تؤلفه لأبنائها كتابها الذي كانت تكتب فيه ليحيى وأهدته إياه، وكتاب يحيى الذي أهداه إياه" كما تحلُمين".

****

إحتضنته والدته، لا يدري كم ظل في حضنها وهو يبكي كطفلٍ صغير.

ربما لم تمحنه هذا الشعور حينما كان طفلًا، بكت كثيرًا لبكائه وهو يقص عليها حكايته مع شروق. رقت له ولأول مرة يصلها شعور الأمومة، ندمت على كل الوقت الذي ضيعته بعيدًا عنهم.

قالت له:

– في الفترة الأخيرة أصابني انهيار بعد رحيل أختك، فجأة وجدت نفسي وحيدة، تأملت ما مضى من عمري وقد أضعت أهم شيء مني وهو أنتم!

إتفقت شروق مع ماري أن تأتي إليّ ولا تُعلمني أنها زوجتك، جاءت وخففت عني ما كنت أمر به وعرضت عليّ الإسلام.. أسلمت بعد فترة، ثم إختفت أخبارها، حاولت أن أصل إليها دون جدوى..

ثم وجدت أختك تتصل بي وأخبرتني أنها زوجتك!

لو تعلم كم تأثرت بها.. وكم تألمت لسماع خبر موتها!

– هي لم تمت يا أمي!

إن كانت غابت بجسدها، فأنا أستشعر وجودها في كل شيء، في كل ما تعلمت منها،

في كل بصمة تركتها بداخلي.

ألم تحيا شروق وهي تظن أن أهلها قد ماتوا وهم كانوا على قيد الحياة؟

إذًا الأمر كل الأمر في الإيمان الداخلي،

وأنا أؤمن أنها معي لم تغب..

لا يمكن أن تغيب الشمس يا أمي، إننا على موعد والملتقى الجنة!

" أليس من بدل ستيفن إلى يحيى قادرٌ على أن يجمعنا"؟

****

إشتاق يحيى لصوت شروق، إشتاق أن يسمع كلامها..

لا يجد إلا أن يلوذ لقراءة بعضًا ممّا كتبت لترتوي روحه.

بدأ يدور بيعينه يلتقط مقتطفات من كلامها:

" هكذا الحياة.. لو كان الأمر مقتصرًا على لحظة الإيمان الأولى فحسب،

كان يكفيك أن تتلفظ الشهادتين وينتهي الخطب!

ولكن لا.. فالأمر كل الأمر في التفاصيل الصغيرة التي تملأ حياتنا، في جوانب النفس..

في الابتلاءات التي تصنع منّا ما نحن عليه،

في موازنتك بين ما تُحب نفسك وما يجب أن تكون عليه.

عش من أجل عقيدتك، كن حُلمًا وكن على قدره..

تألم من أجل تحقيقه، وعندها فقط تكون لذة الحياة

تمسك بالطريق ولا تفقده، ولا تضيع ما بنيته في لمح البصر من أول إبتلاء صغير.

في مفترق أي طريق، لابد من روح قوية واعية مستمسكة بحلمها،

فاللهم روحًا قوية تتحمل الابتلاءات.. "

تنفس يحيى بعمق.. إحتضن بقايا الذكريات الموجودة في الكتاب.

سيصمد وسيكمل الطريق حتى يصل إلى منتهى النور

لن يسمح بأن ينطفئ النور الذي أشرقت به زوجته.

ربما تكون بعض الأحلام مؤلمة لكن في تحقيها حياة.

أمسك يحيى بقلمه وخطّ أخر كلماتٍ ليكتمل ذلك الكتاب..

" ذُقت اليوم مرارة الفقد الذي وجدتك تصفينه بين سطورك..

وجدت الجميع إلا أنتِ!

وما يزيل عني وحشة ما أجد، أن النهاية حدثت كما تحلمين..

ثم سأكون أنا الآخر كما وعدتك..

كما تحلمين"

****

سكنت الأرواح وهدأت، عادت والدة يحيى إلى والده وتجمعا بعد فراقٍ دام سنوات،

وبعد إسلامهما وجدا ما يجمعهما بعدما كانا على خلافٍ دائم.

رُزق مالك ومريم بتوأم "شروق وعمر"، وتزوجت فاطمة هي الآخرى.

أمّا يحيى فقد استمرت حياته كعادته.

من بعد الفجر يترقبُ موعد شروق الشمسِ، ينتظر أشعتها تنسدل على الكون..

مهيبٌ هذا المنظر له، محببٌ إلى قلبه، عشقٌ وأبعد بكثير..

رؤيته لهذا الظلام يتبدد، لانبثاق الضوء من بين الظلام، لخيوط النور تُغطي الأرض..

يتأملها... يطيل النظر إليها كأن عيناه تعانقها، يَخيّلُ إليك أنه يحادثها..

أنّ بينه وبينها أسرارًا وحكايا لا تنتهي.

وهكذا كل يوم.. مع كل شروق..

ينتظرها.. ينتظر أشعة الشمس، يحتضن النور المنساب إلى داخله، يتركه يأخذ من روحه ما يشاء.

يختزل هذا المشهد تصورًا مثاليًا لما هي عليه حياته، ومع أن المشهد يتكرر يوميًا إلا أنه يتجدد في نفسه دائمًا، يتجدّد بأعداد أنفاسه، بألوان الأحلام التي يُحبّها والتي كانت تُحبّها هي أيضًا..

تمت..

"كما تحلمين"

لـ سارة رجب

ختامًا..

أكاد أزعم أنّه رغم قسوة بعض أحداث الرواية من أولها مرورًا ببعض التفاصيل وحتى النهاية؛ إلا أنني أتيقن أنها ستترك أملًا حتى ولو كان بسيطًا. وحقيقةً لا أدري كيف يحدث ذلك! ولكن هذا ما حدث مع كل من قرأها قبل النشر تقريبًا.

أمّا عن أحداث الرواية.. فالقصة خيالية، ولكني أتنمى أن تكون تلاقت مع بعض الأحلام.

فالأحلام كُلها تتشابه في أنها أحلام! وأنّها بعيدة المنال وأنها تحتاج إلى جهد ومثابرة وأنّ الواقع يرفضها..

وأن الابتلاء يأتي ملازمًا لها.

تنتهي القصة على أرض الخيال، ولكنها ربما تكون مستمرة في قلوب البعض.

ولا أُريد أن أعلق على الأحداث ولكنّي أكتفي بامتنانٍ لـ..

لمن لديه حُلم، لمن يفعل شيئًا على الأرض غير أنّه يأكل ويشرب ويعمل ويتزوج، لمن هدف حياته يتعدى هذه الحياة، لمن لا يعيشُ أيامًا متشابهة تنقضي يومًا بعد يوم!

لمن لديه تفاصيل في حياته يُحبها ويستمتع بها، لمن عندما تصيبه الحياة بما يؤلمه لا ينهار ويهدم كل شيء بل يقف ويُكمل طريقه، لمن يتحكم بظروف حياته لا هي التي تتحكم به، لمن يعلم لماذا خلقه الله.

ولا أنسى أن أشكر من وصلتُ لكثيرٍ ممّا أنا عليه الآن بوجودهم في حياتي ومن كانت له بصمة في هذه الرواية.

- "شُروق مجدي" مُلهمتي ووراءُ أحلامي.

وبالطبع اسم البطلة يحمل اسمها، ولم أتعلم بما يكفي لأصف كم أضافت إليّ ولكني أكتفي بدعاء "اللهم حياةً لها كما تحلم"..

- "نورا رجب" رفيقة حياتي، أختي الأصغر سنًا والأكبر مقامًا.

- " نيرة الجهاد و مريم محمد خليل و هاجر عادل"

- بنات "أحلى حياة" و" الطريق إلى الله" وصحبة المسجد ورفيقات الكلية.